

## حوار علماء الترسيين (١)

# مِيزة البيكان في نشأة الإنسان كيف نشأت اللُغة في المجتمع البشري؟ الأستاذ غليلك عبدالله

### المقدمة :

طريق علمي ... وبعد استحضار الطرق واستقراء الأدلة ، يبقى الراجع منها لبعض عناصر هذا البحث قائما على الاحتمال .

أذن لابد لنا من دراسة ما قاله التاريخ القديم . وما جاءت الكتب السماوية حول هذا الموضوع . كما لابد لنا من أن نحقق فيما وصل اليه علماء اليوم سواء في الجيولوجيا او في الفلك او في النفس او في الحياة والحيوان والنبات او في الفيزيولوجيا والذرة . وما شابه ذلك .. ثم نخرج بنظرية او اكثر حول هذا البحث لعل فيها نفعا للباحثين .. ومتمعة للمتفكرين .

### النظرة الحيوانية :

لقد درجت اغلب علوم العصر وعلمائه في مختلف المجالات الطبيعية والحياتية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية والكونية وغيرها كثير .. على تبني مبدا التطور . والبناء على اساس مذهب التطوريين .. فما هذا المذهب ؟ .. وماذا يقول ؟ .. وما هي نسبة الصواب فيما يقول ؟ ..

يعود هذا المذهب الى النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما اسدر دارون ( Darwin ) كتابه المسمى اصل الانواع - سنة 1859 ، ومن ثم كتابه الثاني اصل الانسان - سنة 1871 . ومن ذلك الزمن تغيرت نظرة الانسان الى نفسه . والى

حادثة البيان عند الانسان من الحوادث الغامضة ، والمثيرة جدا ، وهي ايضا مفرقة بالتمديد ، لا يكاد انسان اليوم يجد لها جوابا مقنعا .. حيث انها تتعلق بتاريخه الغامض . بعض الشيء ؛ كما يدور حولها تكهنات عديدة ، وي طرح على بساطها عدة اسئلة . هي :

اولا - كيف نطق الانسان الاول وابان من مدركاته ؟ ..

ثانيا - باية لغة نطق ؟ ..

ثالثا - هل كان لديه ذخيرة من الالفاظ اطلقها على المراد بيئته بيمتنس الحال ام انه تناول الفاظه من تلك البيئة ؟؟ ..

رابعا - هل كانت تلك اللغة الاولى التي دوت الفاظها على البسيطة هي ام اللغات . واصلها الامسيل؟ .. ام ان لكل لغة نبعا مستقلا ؟ ..

الجواب عن هذه الاسئلة وامثالها . يحتاج الى جهد كبير لكي يوفيه الباحث حثها . ولانها مفرقة في الابهام . عميقة عمق التاريخ . ولابد لمن اراد ان يتحدث عنها من تقصي كل ما قيل عن الانسان الاول . سواء من طريق نقلي او من طريق عقلي . او من

التطوري . ولذلك نكل الكائنات الحية متساوية القيمة . وليست فكرة التقدم الا فكرة انسانية . ومن المسلم به ان الانسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطة او الفار .

« ولم تصفر الهوة هنا بين الانسان والحيوان . نتيجة المبالغة في اعطاء الحيوان صفات الانسانية ؛ وانما نتيجة التقليل من الصفات الانسانية في الانسان . ومع ذلك فقد ظهر منذ عهد قريب اتجاه جديد ، سببه في الغالب زيادة المعرفة واتساع نطاق التحليل العلمي .

« ان الخطار يتأرجح ثانية : وتتسع الهوة بين الانسان والحيوان مرة اخرى . وبعد نظرية دارون لم يعد الانسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانا (1) ولكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا . وفي حالات كثيرة لا مثيل له . وتحليل تفرد الانسان من الناحية البيولوجية لم يبلغ نضجه بعد . وما هذا المثال الا محاولة لعرض مركزه الحالي ...

« وأول خصائص الانسان الفذة ، واعظمها وضوحا . قدرته على التفكير التصوري - التخيل - ولقد كان لهذه الخاصية الاساسية في الانسان نتائج كثيرة .. وكان اهمها نمو التقاليد المتزايدة - الناشئة من رصيد التجارب الانسانية - ومن اهم نتائج تزايد التقاليد - او اذا شئت من اهم مظاهره الحقيقية - ما يقوم به الانسان من تحسين لميابه من مبادئ وآلات .. وان العدد والتقاليد لمي الخواص التي هيأت للانسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية ... وهذه السيادة « البيولوجية » - في الوقت الحاضر - خاصة اخرى من خواص الانسان الفذة « (ص 5/3)

وهكذا يضع علم الحياة - الانسان - في مركز مماثل لما انعم به عليه كسيد المخلوقات .. كما تقول الاديان .. (2) « .

« ولقد ادى الكلام والتقاليد والعدد الى كثير من خواص الانسان الاخرى التي لا مثيل لها بين المخلوقات الاخرى ، ومعظمها واضح معروف .

« والانسان لا مثيل له ايضا كنوع مسيطر . اذا انقسمت كل الانواع الاخرى المسيطرة الى مئات والآلاف كثيرة من الانواع المنفصلة ، وتجمعت في اجناس

كونه والى تاريخه .. حيث دوت نظرية دارون معلنة ان الحياة قد تطورت من الخلية الواحدة الى الانسان المعقد .. وهذا الانسان قد تطور من حيوان سابق الى حيوان يشبه الانسان ( القرد ) الى انسان يشبهه الحيوان ( الحلقة المفتوحة ) .. الى الانسان .

ولقد حطبت هذه النظرية كل ثبات في نظر العلماء والعامية وساعدها عدة عوامل قوية في ميادين السياسة والحضارة والمعتقدات - لا مجال الى شرحها هنا - وتلقاها الجبيع بذهول ثم بكل ترحيب . وحملها العامة والخاصة . العلماء والسوقة ، بكل نشوة ومصبية فترة من الزمان ، بدون اعمال العقل وتحكيم الضمير .. وكان الزمان كغيبلا باخاد هذه الثورة في النفوس .. ورجع هؤلاء الناس الى عقولهم ، وتناولوا النظرية من جديد ؛ بحثا وتدقيقا .. فكان منهم من ردها نهائيا . ومنهم من عدل لميها . ومنهم من بقي ينفخ في رؤوس الناس لقبولها ، مستهدفا بعض الغايات .. - او الاخرى نفس الغايات التي وجدت النظرية بسببها - .

العالم الدارويني الحديث - جوليان هكلي - يؤمن بالتطور كاستاذ دارون ولكن يخالفه بحيوانية الانسان . ويمتد ان الانسان متسرد بيولوجيا وسيكولوجيا ويتطور على قاعدته الانسانية الخاصة لا على القاعدة الحيوانية . كما يرمع هكلي من الانسان صفة المادية البحث ، ويلفت النظر الى عمل الفطرة الخلقة في نفس الانسان ( بيولوجيا ) وان له خصائص لم تلاحظ في أي حيوان . ولهذه الخصائص آثار متفردة .

ولنستمع اليه يقول في كتابه ( الانسان في العالم الحديث ) - ترجمة حسن خطاب - « لقد تأرجح الانسان كالخطار ( البندول ) لمي يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات ، بين اعجاب الشديد او القليل بنفسه . يفصل بينه وبين الحيوانات هوة سحيقة جدا ، وهينا آخر هوة صغيرة جدا . »

« ويظهر نظرية دارون بدا الخطار ( البندول ) يتأرجح مكميا ؛ واعتبر الانسان حيوانا مرة اخرى .. ووصل الخطار شيئا فشيئا الى انفس مدي تأرجحه ، وظهر ما بدا انه النتائج المنطقية لمروض دارون . فالانسان كغيره من الحيوانات . ولذلك فان آراءه في معنى الحياة الانسانية ، والمثل العليا ، لا تستحق تقديرا اكثر من آراء الفودة الشريطية او بكتريا الباشلس . والبقاء هو المقاس الوحيد للتجساح

ومصائل عديدة ومجموعات أكبر . أما الإنسان فلنفسه حافظ على سيادته من غير انقسام . ولقد تم تنوع سلالات الإنسان في حدود نوع واحد .

« واخيرا فان الانسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره .

« وللانسان خاصية اخرى بيولوجية ، وهي تفرد تاريخ تطوره .. ونحن الآن في مركز يسمح لنا بتعريف تفرد الانسان في تطوره . واما خاصية الانسان الجوهرية ككائن هي مسيطر فهي « التفكير المعنوي » .

ولقد كان بحثنا حتى الآن بطريقة ميسرة في خصائص الانسان من ناحية التطور والمقارنة . والآن نعود اليها . ونبحث فيها وفي نتائجها بشيء من الاسهاب .. ناولا يجب الا يعزب عن بالنا ، ان الفرق بين الانسان والحيوان في العقل اعظم بكثير مما نضن عادة .. وكلنا على علم بقوة الفريزة في الحشرات . ولكنها تبدو عاجزة عن معرفة طرق جديدة . وليست الثدييات بافضل من ذلك .. بينما للتفكير عند الانسان اهمية بيولوجية كبرى حتى عندما تسود تفكيره العادة والمحاولة والخطا . ولا بد ان يكون سلوك الحيوانات مرميا - اي انه ثابت في حدود ضيقة - اما الانسان فقد أصبح في سلوكه حرا نسبيا .. حرا في الاخذ والعطاء على حد سواء .. ولهذا الزيادة في المرونة نتائج اخرى سيكولوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية .. والانسان أيضا لم يرد في بعضها . فقد ادت هذه المرونة مثلا الى كون الانسان الكائن الحي الوحيد ، الذي لا بد له ان يتعرض الى الصراع النفسي .. ومع ذلك فطبقا لآراء الحديثة توجد في الانسان اجهزة لتقليل النزاع الى اقصى حد ، وهي التي يعرفها علماء النفس بالكمبت والقمع .

« وهذه الخواص التي امتاز بها الانسان ، والتي يمكن تسميتها - نفسية - أكثر منها - بيولوجية - تنشأ من خاصية او أكثر من الخواص الثلاث الآتية :

الاولى : قدرته على التفكير العام والخاص .

الثانية : التوحيد النسبي لعملياته العقلية ، بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والامة والحزب والجماعة الدينية وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها . (ص 32)

« وهناك نتائج ثانوية كثيرة لتطور العقل من مرحلة ما قبل الانسان الى مرحلة الانسان (3) وهي بلاشك مريدة من الناحية البيولوجية . ولنذكر منها العلوم الرياضية والمواهب الموسيقية ، والتقدير والابداع الفنيين ، والدين ، والحب المثالي ..

« ولكن لا يكفي هنا ان نحصي بعض اوجه النشاط . ففي الحقيقة ان معظم اوجه النشاط الانساني وخواصه ، نتائج ثانوية لخواصه الاصلية . وكذلك لمهي مذة من الناحية البيولوجية .. وقد يكون لتفرد الانسان نتائج ثانوية اخرى لم تستغل بعد ..

« وبذلك يكون الانسان لمريدا في احواله أكثر مما نظن الآن » انتهى كلام هسكلي .

واما العالم الامريكي : « ا . كريسي موريسون » فانه يرد على نظرية (النشوء والارتقاء) ردا علميا ويستبعد بالكلية اي ارتباط بين الانسان وبين الحيوان كما انه يستنكر ان يقوم الانسان هكذا لوحده ابتداء من الخلية وعلى مبدا الصدفة ولنقرأ ما كتب هذا العالم في كتابه (Man does not stand alone) الذي ترجمه الى العربية محمود صالح الفلكي بعنوان ( العلم يدعو الى الايمان ) :

« ان القائلين بنظرية التطور ( النشوء والارتقاء ) لم يكونوا يعلمون شيئا عن وحدات الوراثة ( الجينات ) ( ص 145 ) .

« لقد رأينا ان « الجينات » متلق على كونها تنظيمات اصغر من الميكروسكوبية للذرات في خلايا الوراثة بجميع الكائنات الحية . وهي تحفظ التصميم ، وسجل السلف ، والخواص التي لكل شيء هي . وهي تتحكم تفصيلا في الجذر والجذع والورق والزهر والثمر لكل نبات ، تماما كما تقرر الشكل والقشر والشعر والاجنحة لكل حيوان بما فيه الانسان » ( ص 147 ) .

... « ويلاحظ ان جميع الكائنات الحية ، منفصل بعضها عن بعض بهوات كثيفة لا يمكن عبورها . حتي ان الحيوانات المتقاربة يتفصل بعضها عن بعضها كذلك » .

« والانسان حيوان من رتبة الطليعة ، وتكوينه يشبه فصائل ( السيبيا ) - الاورنجتان والفوريلا

والشبهانزي - ولكن هذا الشبه الهيكلى ليس بالضرورة برهانا على اننا من نسل اسلاف سيمائية من القروء او ان تلك القروء هي ذرية منحطه للانسان . ولا يمكن احد ان يزعم ان سمك القد (Cod) قد تطور من سمك الحساس (Haddock) وان يكن كلاهما يسكن البياض نفسها ، وياكل الطعام نفسه . ولهما عظام تكاد تكون متشابهة ... ( ص 142 )

« ان ارتقاء الانسان الحيوانى الى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده هو خطوة اعظم من ان تتم عن طريق التطور المادى . ودون قصد ابتدائى .

واذا قبلت واقعية القصد . فان الانسان بوصفه هذا قد يكون جهازا .. ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز؟ . لانه بدون ان يدار . لا فائدة منه والعلم لا يعمل من يتولى ادارته . وكذلك لا يزعم انه مادى .

« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفى لان نوقن بان الله قد منح الانسان قبسا من نوره . ولا يزال الانسان فى طور طفولته من وجهة الخلق . وقد بدأ يشمر بوجود ما يسميه ( بالروح ) وهو يرقى فى بطنه ليدرك هذه الهبة . ويشمر بفريزته بانها خالدة .

« واذا صح هذا التعليل - ويبدو ان المنطق الذي يسند له لا يمكن دحضه - فان هذه الكرة الارضية الصغيرة التي لنا . وربما غيرها كذلك : تكسب اهمية لم يحلم بها احد من قبل . فعلى قدر ما نعلم قد تولد من عالمنا الصغير هذا . اول جهاز مادى اضيف اليه من نور الله . وهذا يرفع الانسان من مرتبة الفريزة الحيوانية الى درجة القدرة على التفكير . التي يمكن بها الان ان يدرك عظمة الكون فى اشتباكاتة . ويشمر شمورا غامضا بعظمة الله مائلة فى خلقه . ( ص 187 - 188 )

« ان اية ذرة او جزيئة Atom, Molecule لم يكن لها فكر قط . واي اتحاد للعناصر لم يتولد منه راي ابدى . واي قانون طبيعى لم يستطع بنشاء كاتدرائية . ولكن كائنات حية معينة قد خلقت تبمسا لحوائز معينة للحياة هذه الكائنات تنتظم شيئا طبيعيا جزيئات المادة بدورها . ونتيجة هذا وذاك كل ما نراه من عجائب العالم . فما هو هذا الكائن الحى ؟ .. هل هو عبارة عن ذرات وجزيئات ؟ اجل .. وماذا ايضا ؟ شيء غير ملموس . اعلى كثيرا من المادة لدرجة انه

يسيطر على كل شيء ومختلف جدا عن كل ما هو مادى مما صنع منه العالم ، لدرجة انه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه . وهو فيما نعلم ليست له قوانين تحكمه . ان روح الانسان هي سيدة مصيره ، ولكنها تشمر بصلتها بالمصدر الاعلى لوجودها . وقد اوجدت للانسان قانونا للاخلاق لا يملكه اي حيوان آخر ، ولا يحتاج اليه . فاذا سمي احد ذلك الكيان بانه فضلة لتكوينات المادة ؛ لا لشيء سوى انه لا يعرف كتبه بانبوية الاختيار ، فهو انما يزعم زعما لا يقوم عليه برهان .. انه شيء موجود ، يظهر نفسه باعماله . وينفخحياته وبسيطرته على المادة ، وبالاخص بقدرته على رفع الانسان المادى من ضعف البشر وخطئهم الى الانسجام مع ارادة الله .. هذه هي خلاصة القصد الرياضى . وفيها تفسير للاشتياق الكامن فى نفس الانسان للاتصال باشياء اعلى من نفسه . وفيها كشف عن اساس حائزه الدينى .. وهذا هو الدين « .. ( ص 201 - 202 ) .

واما عالم الحياة ( الكسيس كاريل ) فانه يعتبر ان الانسان حدث فذ مميز وعالم فرد ليس له مثيل على ارضنا هذه ؛ كما يعتبر اننا لا نعلم شيئا عن هذا الانسان المجهول المعقد ، وذلك فى كتابه ( الانسان ذلك المجهول ) وقد عبره السيد شفيق اسعد فريد .

ولنتقل الان بمضى هذه المعانى :

« هناك تفاوت عجيب بين علوم الجياد وعلوم الحياة .. فعلوم الفلك والميكانيكا والطبيعة ، تقوم على آراء يمكن التعبير عنها ، بسداد ومصاحة ، باللفظة الحسابية وقد انشأت هذه العلوم عالما متناسلا كتناسق آثار اليونان القديمة . انما تنسج حول هذا العالم نسيجاً رائعاً من الاحصاءات والنظريات .

« بيد ان موقف علوم الحياة يختلف عن ذلك كل الاختلاف . حتى ليبدو وكان الذين يدرسون الحياة قد ضلوا طريقهم فى غاب متشابك الاشجار ، او انهم فى قلب دغل سحري ؛ لا تكف اشجاره التي لا عداد لها عن تغيير اماكنها واحجامها فهم يزرعون تحت عسبه اكداس من الحقائق ؛ التي يستطيعون ان يصفوها ، ولكنهم يمجزون عن تعريفها او تحديدها فى معادلات جبرية . فمن الاشياء التي تراها العين فى عالم الماديات ، سواء كانت ذرات ام نجوماً صخوراً ام سحبا ، صلبا ام ماء .. امكن استخلاص خواص معينة كالكتل والابعاد الانساعية .. وهذه المستخلصات - وليست

كيف تتحد جزيئات المواد الكيماوية لكي تكون المركب والاعضاء الموقفة للخلية ؟

كيف تقرر « الجينيس » - ناقلات الوراثة - في نواة البويضة الملقحة ، صلات الفرد المشتقة من هذه البويضة ؟؟

كيف تنتظم الخلايا في جماعت من تلقاء نفسها مثل الانسجة والاعضاء ؟ فهي كالنمل والنحل تعرف مقدما الدور الذي قدر لها ان تلعبه في حياة المجموع ، وتساعد العمليات الميكانيكية الخفية على بناء جسم بسيط ومعقد في الوقت ذاته .

« ما هي طبيعة تكويننا النفساني والسيولوجي ؟ اننا نعرف اننا مركب من الانسجة والاعضاء ، والسوائل والشعور . ولكن العلاقات بين الشعور والمخ ما زالت لغزا . اننا ما زلنا بحاجة الى معلومات كاملة تقريبا عن سيولوجية الخلايا العصبية .. التي اي مدى تؤثر الإرادة في الجسم ؟ كيف يتأثر العقل بحالة الاعضاء ؟ على اي وجه تستطيع الخصائص العضوية العقلية التي يرثها كل فرد ان تتغير بواسطة طريق الحياة والمواد الكيماوية الموجودة في الطعام والناخ ، والنظم النفسية والادبية ؟

« اننا ما زلنا بعيدين جدا عن معرفة ماهية العلاقات الموجودة بين الهيكل العظمي والمضلات والاعضاء . ووجوه النشاط العقلي والروحي .. وما زلنا نجعل العوامل التي تحدث التوازن العصبي ، ومقاومة التعب ، والكناخ ضد الامراض .

« اننا لا نعرف كيف يمكن ان يزداد الاهساس الادبي . وقوة الحكم ، والجرأة .. ولا ماهي الاهمية النسبية للنشاط العقلي والادبي .. كذلك النشاط الديني

« اي شكل من اشكال النشاط مسؤول عن تبادل الشعور او الخواطر ؟ ..

« لاشك مطلنا في ان عوامل سيولوجية وعقلية هي التي تقرر السعادة او التماسة ، النجاح او الفشل .. ولكننا لا نعرف ما هي هذه العوامل .. اننا لا نستطيع ان نهب اي فرد ذلك الاستعداد لقبول السعادة بطريقة سنامية .

« وحتى الآن فاننا لا نعرف اي البيئات اكثر صلاحية لانشاء الرجل المتبحر وتقدمه .

الحقائق العلمية - هي مادة التفكير العلمي .. ملاحظة الاشياء تدنا فقط بأقل صور العلم شأننا ، ونعنى بها الصورة الوصلية . فالعلم الوصفي يرتب الظواهر . بيد ان العلاقات التي لا تتغير بين الكميات غير القابلة للتغيير - اي القوانين الطبيعية - تظهر فقط عندما يصبح العلم أكثر معنوية . وما ذلك النجاح العظيم السريع الذي نراه في علمي الطبيعة والكيمياء الا لانهما علمان معنويان كميان . فعلى الرغم من انهما لا يدميان انهما يكشفان القناع عن الطبيعة النهائية للاشياء فانهما يبداننا بقوة التنبؤ بحوادث المستقبل . وتقرير كيفية وقوعها طبقا لارادتنا . وبتملنا سر تركيب المادة وخواصها استطعنا الظفر بالسيادة تقريبا على كل شيء موجود على ظهر البسيطة فيما عدا انفسنا ..

« ولكن علم الكائنات الحية بصفة عامة - والانسان بصفة خاصة - لم يصب مثل هذا التقدم .. انه لا يزال في المرحلة الوصلية .. فالانسان ككل لا يتجزأ . وفي غاية التعميد . ومن غير اليسور الحصول على مرض بسيط له . وليست هناك طريقة لفهمه في جموعه او في اجزائه ؛ في وقت واحد . كما لا توجد طريقة لهم علاقاته بالعالم الخارجي .

« ولكي نحلل انفسنا فاننا مضطرون الى الاستعانة بفنون مختلفة . والى استخدام علوم عديدة .. ومن الطبيعي ان تصل كل هذه العلوم الى رأي مختلف في غايتها المشتركة . فانها تستخلص من الانسان ما تمكنها وسائلها الخاصة من بلوغها فقط . وبمقد ان نضاق هذه المستخلصات بعضها الى بعض . فانها تبقى اقل غناء من الحقبة الصلبة .. انها تخلف وراءها بقية عظيمة الاهمية ، بحيث لا يمكن اهمالها

« .. اننا لا نفهم الانسان ككل .. اننا نعرفه على انه مكون من اجزاء مختلفة وحتى هذه الاجزاء ابتدعتها وسائلنا . فكل واحد منا مكون من مركب من الاشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة ..

« وواقع الامر ان جهلنا مطبق . فغالبا الاسئلة التي يلقيها على انفسهم اولئك الذين يدرسون الجنس البشري تغزل بلا جواب ؛ لان هناك مناطق غير محدودة من دنيانا الباطنية ؛ ما زالت غير معروفة . ونحن لا نعرف حتى الآن ، الاجابة عن اسئلة كثيرة مثل :

« هل في الامكان كعبت روح الكناح والمجهود ، وما قد نحس به من عناء بسبب تكويننا الفسيولوجي والروحي ؟؟ »

« كيف نستطيع ان نحول دون تدهور الانسان وانحطاطه في المدنية المصرية ؟ »

وهناك اسئلة اخرى لا عداد لها ، يمكن ان تلقى في موضوعات تعتبر في غاية الاهمية بالنسبة لنا .. ولكنها ستظل جيبيا بلا جواب .. فمن الواضح ان جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الانسان ، غير كاف ، وان معرفتنا بانفسنا ما زالت بدائية في الغالب ... » ( ص 13 - 18 ) .

« ان معرفة نفوسنا لن تصل ابدا الى تلك المرتبة من البساطة المعبرة ، والتجرد والجمال ، التي بلغها علم المادة . اذ ليس من المحتمل ان تختصص العناصر التي اخرت تقدم علم الانسان .. فعملينا ان ندرك بوضوح ان علم الانسان « هو اصعب العلوم جيبيا » .

« ان الفردية جوهرية في الانسان . انها ليست مجرد جانب معين من الجسم اذ انها تنفذ الى كل كياننا .. وهي تجعل « الذات » حدثا مفيدا في تاريخ العالم .. انها تطبع الجسم والشمور . كما تطبع كل مركب في الكل بطابعها الخاص . وان ظلت غير منظورة .. » ( ص 281 ) انتهى كلام كاريل .

هذا نموذج مصغر من الرد العملي للنظرية القائلة بحيوانية الانسان ، واما من وجهة النظر السياسية فللنظرية فيها ميدان لا يستهان به الخصه فيما يلي :

ان حيوانية الانسان هذه - كما يزعمون - لها اصل اصيل في احد الكتب المقدسة لدى الطوائف اليهودية .. ولكنها حيوانية تختص فقط بالاميين غير اليهود ، فاليهودي هو الانسان فقط ، وهو من نسل ابيه آدم الذي خلقه الله بيده ، واما غير اليهودي فهو من اصل حيواني قد طوره الله الى شكل الانسان لكي يكون جديرا بخدمة شعب الله المختار ، هذا وقد اختلف الحاخامات حول اصل الاميين ( غير اليهود ) فقال بعضهم : من نطفة حصان .. وبعضهم قال من نطفة كلب وبعضهم وبعضهم .. ولكن ( دارون ) كان

اذكى واعلم بالحيوان فوجد ان القرد هو اقرب هيكل الى الانسان من غيرها من الحيوانات فانتشرت نظريته .

والتلمود يوحى لمن يقرأه بأنه كتاب الهيمنة المشمودة لدى اليهود على سائر الجنس البشري ، ولما كان هذا الامر شائنا وعسيرا ، أصبح لابد من اقتناع الاميين بنظرياته وتماليبه .. فكان ما قرره - ظنا - دارون من طريق استقراي ناقص نظرية البسها مسوح العلم ، واوهم بها العالم على انها يقينية لا ترد .

ولكن ما علاقة دارون باليهودية وما علاقته بحيوانية الانسان الاسمي التي جاءت في كتاب قديم جدا لليهود ؟؟

ان دارون كان على خط التلمودية الحديثة ( الصهيونية ) من حيث يدري او من حيث لا يدري ... والوثائق تشير كما اشارت الوثائق بأن دارون كان يسير بموجب ابحاثها .

وهذا ما قرناه في المقررات التي اخذتها الجمعيات الصهيونية العالمية في مؤتمر - بال - عام 1897 .

وقد جاء في البروتوكول الثاني لهذه المقررات ما يلي :

« ان الطبقات المتعلمة ستختال زهوا أمام نفسها بعلمها . وستأخذ جزأيا في مزاوله المعرفة التي حصلتها من العلم الذي قدمه اليها وكلاؤنا - رغبة في تربية عقولها حسب الاتجاه الذي توخيناها - .

« لا تتصوروا ان تصريحاتنا كلمات جوفاء . ولاحظوا هنا ان نجاح دارون Darwin وباركس Marx ونيتشه Nietzsche قد رتبناه من قبل . والامر غير الاخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الاسمي ( غير اليهودي ) سيكون واضحا لنا على التأكيد « (4) .

ودارون لم يفعل شيئا سوى انه لمسح حيوانية الانسان التي وردت في التلمود في مواضع عديدة نجتزئها ببعضها في سطور :

« جاء في تلمود اورشليم ان النطفة التي خلقت منها بقية الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان ..

الواقع ، وقد رده العلم والعقل معا .. وعليه فهو غير جديد بان يكون اساسا لبحث اميزة البيان في شأن الانسان ، او غيره من الابحاث العلمية الجادة الهادفة.

ونتيجة لهذا البحث العلمي يتقرر معنا الاتي .. :

- 1 - الانسان مخلوق فذ .
- 2 - حادثة وجود الانسان على الارض حادثة فذة غير مكررة .
- 3 - الانسان متميز عن الحيوان نفسيا وجسديا .
- 4 - لا تماثل بين الانسان والحيوان والشبه العضوي او الهيكللي ليس دليلا على كون احدهما من الآخر .
- 5 - الفطرة ثابتة عند الانسان منذ كانت وان تغيرت صور الدواعي ليها .
- 6 - ويمتاز بـ ( التفكير التصوري )
- 7 - ولديه امكانيات اجتماعية واقتصادية وسياسية كائنة في فطرته منذ كان .

وهذا يعني ان الانسان وجد دون مقدمات ويتمتع بنفس الميزات التي لديه الآن - وان تغيرت وتطورت مظاهرها الخارجية وصورها - وميزة البيان من الميزات العديدة التي تميز الانسان عن الحيوان ... ولما كان هذا شأن الانسان امسح من الضروري ان يكون ناطقا مدركا اي مبينا ، منذ وجوده الاول لكي يعبر عن مكونات فطرته ويبين بواسطتها عن احساساته ومدركاته ، ويحقق بوجوبها غاية وجوده .

فيك نطق الانسان الاول فهذا ما سوف نحقق فيه الى جانب تثبيته ما نتج معنا في هذا الفصل . وذلك عند استنطاق التاريخ بما فيه من روايات مختلفة . في الفصل الثاني :

### المنظرة التاريخية :

لو هدنا الى اعماق التاريخ لنسأل عن الانسان وكيف كان ؟ . فسوف نجد فساتنا المنشودة .. وذلك بالرغم من تضارب الروايات واختلاف الاخبار .. الا اننا نلح من خلالها خطأ مريضا ينتظم الكل . مع بعض التفرعات . كما نلح واديا مبيحا تسير في شجبه فكرة واضحة عن نشأة الانسان .

« الامم الخارجة عن دين اليهود ليست كلابا لمقط بل حميرا أيضا . وقال الحاخام - ابار باتيل - : ان الشعب المختار هو الذي يستحق الحياة الابدية واما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير . ولا قرابة بين اليهود وبين الامم الخارجة عن الدين اليهودي لانهم اشبه بالحمير ، وبيوت عبادة باقي الامم يعتبرونها اليهود كزرائب الحيوانات وقال الحبر مناخم : ايها اليهود ، انكم من بني البشر لان ارواحكم مصدرها روح الله . واما باقي الامم فليست كذلك لان ارواحهم مصدرها الروح النجسة .

« وكان هذا رأي الحاخام - اربل - ايضا لانه كان يعتبر الخارجين عن الدين اليهودي خنازير نجسة تسكن الغابات . فالخارج عن دين اليهود حيوان على وجه عام . سمه كلبا او حمارا او خنزيرا .. والنطفة التي هو منها هي نطفة حيوان .

« وقال الحاخام - ابار باتيل - المرأة غير اليهودية هي من الحيوانات وقد خلق الله الاجنبي على هيئة الانسان ليكون لائقا لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا من اجلهم ، لانه لا يناسب الايسر ان يخدمه ليلا ونهارا حيوان على صورته الحيوانية كلا . لهذا مناك للفوق والانسانية .

« فاذا مات خادم يهودي او خادمة وكانا من المسيحيين فليست ملزما بان تقدم له التمازي باعتباره نطق انسانا ، بل باعتباره نطق حيوانا من الحيوانات المسفرة » (5) .

اذن لحيوانية الانسان التي نادى بها التطوريون هذا منطلقا .. ولا بد للصهيونية التلمودية التي تبغى السيطرة على العالم من ان تثبت هذا في افهام الناس بطريق سحري تقبله العقول الضعيفة وجباهيبر الناس لتنتقل بهذا المفهوم بكل حرية محطة تسيود القيم الثابتة والاخلاق السامية والرسالات القومية .. وتميش بالتالي كالحيوانات ، تاكل وتمتع بانواع السموات واللاذئذ بلا رقيب ولا حسيب . وعندما تصل هذه الحيوانات - بالتشبه - الى درجة الفوضى والضياع يسمل قيادها وتلين فتاتها لارباب الصهيونية وبعد ، فالزعم القائل بحيوانية الانسان وتطوره من الخلية الواحدة ، هو زعم فاسد ولا رصيد له من

عبادته ، فلم يزل مجتهدا في العبادة حتى خلق الله آدم ، فكان من أمره ومعصيته ربه ما كان « ( ص 88 ج 1 )  
وفي معرض القول عن خلق آدم عليه السلام :

« وكان مما حدث في أيام سلطانه وملكه ( يعني ابليس ) خلق الله - تعالى ذكره - ابانا آدم ابنا البشر ، وذلك لما اراد جل جلاله ان يطلق ملائكته على ما قد علم من انطواء ابليس على الكبر ولم يعلمه الملائكة ، و اراد اظهار أمره لهم حين دنا أمره للهبوط وملكه وسلطانه للزوال ، فقال - عز ذكره - لما اراد ذلك للملائكة : ( اني جاعل في الارض خليفة ) فاجابوه بان قالوا له : ( اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء - البقرة 30 ) فروي عن ابن عباس ان الملائكة قالت ذلك كذلك للذين قد كانوا عهدوا من امر الجن كانوا سكان الارض قبل ذلك ، فقالوا لمريم جل ثناؤه لما قال لهم : ( اني جاعل في الارض خليفة ) اتجعل فيها من يكون فيها مثل الجن الذين كانوا فيها ، فكانوا يسفكون الدماء ويفسدون فيها ويمصونك ، ونحن نسبح بحمك ونقدس لك ، فقال الرب - تعالى ذكره - لهم : ( اني اعلم ما لا تعلمون ) يقول : اعلم ما لا تعلمون من انطواء ابليس على التكبر ، وهزمه على خلافه امري ، وتسويل نفسه له الباطل واغتراره وانا مبد لكم منه لتروا ذلك منه هيانا ..

« فلما اراد الله عز وجل ان يخلق آدم عليه السلام امر بتريته ان تؤخذ من الارض .. كما حدثنا ابو كريب قال حدثنا عثمان بن سعيد ، قال : حدثنا بشر بن عمار ، عن ابي زوق ، عن الضحاک ، عن ابن عباس ، قال : ثم امر - يعني الرب تبارك وتعالى - بترية آدم فرمعت ، فخلق الله آدم من طين لازب - واللازب اللزج الطيب - من حما مسنون ، منقن ، قال : واما كان حما مسنونا بعد التراب ، قال : فخلق منه آدم بيده » - ص 89 - 90 ج 1 -

« حدثنا ابن حميد قال : حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن ابي الخير عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس ، قال : بعث رب العزة - عز وجل - ابليس ، فآخذ من اديم الارض ، من عذبا وملحها ، فخلق منه آدم ، ومن ثم سمي آدم ، لانه خلق من اديم الارض ، ومن ثم قال ابليس : ( اسجد لمن خلقت طينا - الاسراء 61 ) اي هذه الطينة انا جئت بها . - ص 90 / 91 ج 1 -

فالاخبار التي تناقلها نسابو العرب في الجزيرة العربية وغيرها تشبه الى حد كبير ما نقله المؤرخون الفرس ، وهذه بالتالي قد تختلف كثيرا وخاصة في اصولها مما حكاه اهل التوراة ( في العهد القديم ) .. وهذه وتلك وهاتيك تكاد تكون مماثلة لاخبار الاسم السابقة التي ذكرها القرآن الكريم ونصوص السنة النبوية .

ولقد استطاع المؤرخون العظام في ظل الدولة الاسلامية وفي قمة العصور الذهبية للفكر والتأليف ، امثال ابن الاثير وابن جرير الطبري وابن كثير وابن عساکر وابن خلکان وابن خلدون وغيرهم كثير ... ان يجمعوا الروايات المختلفة والاخبار المتضاربة عن تاريخ البشرية ونشأة الانسان تحتقوا فيها تحقيقا علميا دقيقا ووضعوا بين ابدينا الراي الراجح والخط الواضح لنشأة الانسان .

وسوف نكتفي بتتبع بعض النصوص التاريخية المأخوذة من تاريخ واحد من اوثق التواريخ . من تاريخ الرسل والملوك (6) لمؤلفه ابي جعفر محمد بن جرير الطبري ( 224 - 310 هـ ) .. هذا التاريخ الذي بنى عليه وعلى امثاله مؤرخو اليوم كثيرا من مؤلفاتهم وتواريخهم وابحاثهم التاريخية .

قال ابن جرير في معرض كلامه عن استكبار ابليس في الارض وهلاكه :

« وقد قيل : ان سبب هلاكه ، كان من اجل ان الارض كان فيها قبل آدم الجن ، فبعث الله ابليس قاضيا يقضي بينهم ، فلم يزل يقضي بينهم بالحق الف سنة حتى سمي حكما ، وسماه الله به ، واوحى اليه اسمه ، فعند ذلك دخله الكبر ، فعاظم وتكبر ، واتقى بين الذين كان الله بعثه اليهم حكما ، البأس والعداوة والبغضاء ، فانتقلوا عند ذلك في الارض التي سئنا فيها زعموا ، حتى ان خيولهم تخوف في دمائهم ، قالوا : وذلك قول الله تبارك وتعالى : ( انميينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد - سورة ق 15 ) وقول الملائكة : ( اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء - البقرة 30 ) فبعث الله تعالى عند ذلك نارا ماهرقتهم . قالوا : فلما رأى ابليس ما نزل بقومه من العذاب هرج الى السماء ، فاقام عند الملائكة يعبد الله في السماء مجتهدا ، لم يعبده شيء من خلقه مثل



الصور وأفضل الصفات العقلية والجسدية التي تخوله القيام بمهام الخلافة في الأرض وعمارتها ، لذلك كان — منذ كان — بشرا سويا مدركا مفكرا ناطقا له عينان ينظر بهما وله أذنان يسمع بهما وله أنف يشم به وله لسان ينطق به وله يدان يبطش بهما ورجلان يمشي عليهما لاكتساب معيشته وتحقيق غاية وجوده .

ولكن هذه النصوص قد اعتمدت على النقل — غالبا — ولم تعالج الفكرة من وجهة عقلية . فهل عندنا من نص تاريخي يتكلم في عقلانية هذا الموضوع؟؟ لنرجع إذن ، إلى العالم اللغوي والمؤرخ الفيلسوف . واضح علم الاجتماع ، واستناد من كتب فيه من بعده.. إلى البحاثة المسلم ابن خلدون .. حيث يؤمن بما آمن به غيره من المؤرخين بأن الله هو الذي خلق آدم وأن آدم خلق كاملا ، وأودعت فيه فطرة معينة تميزه عن غيره من المخلوقات كما له صفات نفسانية لا يتمتع بها أي حيوان آخر ويتجلى ذلك بالتفكير والتصور الذين يتمتع بهما الإنسان .. كما تجعله هذه الفطرة اجتماعيا يالك الآخرين لينظم مجتمعه ويبيئه على ضوء هديها.

قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه : (7) .

« الفصل الأول من الكتاب الأول في العمران البشري على الجملة ونبهه مقدمات « الأولى في أن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكباء عن هذا بقولهم : الإنسان مدني بالطبع ، أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم . وهو معنى العمران وبيانه ان الله سبحانه خلق الإنسان : وركبه على صورة لا يصح حياتها ويقاؤها الا بالغذاء . وهداه إلى التماسه بطهرته وبما ركبها فيه من القدرة على تحصيله ، الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمسادة حياته منه ، ولو فرضنا منه اقل ما يمكن لمرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلا فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ ، وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة يحتاج الى مواهب وآلات لا تتم الا بصناعات متعددة من حداد ونجار وماخوري . هب انه يأكله حبا من غير علاج فهو أيضا يحتاج في تحصيله حبا إلى اعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحبوب من غلاف السنبل . ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة ومناجح كثيرة أكثر من الأولى ويستحيل ان تؤمن بذلك كله او بعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه

« ونكر ان الله تعالى ذكره لما خبر طينة آدم تركها اربعين ليلة ، وقيل اربعين عاما جسدا ملقى »  
— ص 92 ج 1 —

« فلما نفخ فيه الروح اتته الروح من قبل راسه . فيما ذكر من السلف قبلنا انهم قالوه .. » — ص 94 ج 1 .

« ثم علم الله — عز وجل — آدم الاسماء كلها . واختلف السلف من اهل العلم قبلنا في الاسماء التي علمها آدم : اخاصا من الاسماء علم . ام عاما ؟ فقال بعضهم : علم اسم كل شيء .. » ص 96 ج 1 .

« حدثنا ابن وكيع ، قال : حدثنا ابي ، عن سليمان بن خصيف ، عن مجاهد : ( وعلم آدم الاسماء كلها ) قال : علمه اسم كل شيء .. » ص 93 ج 1 .

« حدثنا بشر بن معاذ ، حدثنا يزيد بن زريع . عن سعيد ، عن قتادة : قوله عز وجل : ( وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت المليم الحكيم ) قال : يا آدم انبئهم باسمائهم » : فانبا كل صنف من الخلق باسمه ، والجاه إلى جنسه » . ( 98 )

« وقد قيل : ان الله جل جلاله قال ذلك للملائكة لانه جل جلاله لما ابتدا في خلق آدم قالوا فيما بينهم : ليخلق ربنا ما شاء ان يخلق ، فلن يخلق خلقا الا كنا اعلم منه ، واكرم عليه منه ، فلما خلق آدم علمه السلام وعلمه اسماء كل شيء عرض الاشياء للنبي علم آدم اسماءها عليهم ، فقال لهم : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين في قولكم : ان الله لم يخلق خلقا الا كنتم اعلم منه ، واكرم عليه منه » ( ص 100 ج 1 )

هذه النصوص عينة بسيطة من النصوص التاريخية التي تكاد تتفق جميعها على خطأ واحد ، هو ان الله — جل ذكره — تلك القوة العظمى العاملة في هذا الكون لم يبدع ولا يدرى ، والتسي لا يعقل شيء البتة بدونها ، كما لا تعقل نتيجة ما بدون مقدمات ، ولا معلول بدون حلة ، ولا بناء بدون بناء ، ولا مخلوق ينصف بالبداية والنهاية بدون خالق ينصف بالقدم والازلية .. اتول هو ان الله — جل ذكره — اراد ان يخلق .. فخلق .. فكان آدم ابو البشر باحسن

العدوان عنهم لانها موجودة لجميعهم ملابد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من فيهم لقصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهاماتهم يكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل احد الى غيره بمعدوان وهذا هو معنى الملك ، وقد تبين لك بهذا انه خاصة للانسان طبيعة ولا بد لهم منها ، وقد يوجد في بعض الحيوانات المعجم - على ما ذكره الحكماء - كما في النحل والجراد ، لما استقرى فيها بن الحكم والانتباد والاتباع لرئيس من اشخاصها متميز عنها في خلقه وجناته ، الا ان ذلك موجود لغير الانسان بمقتضى الفطرة والهداية ، لا بمقتضى الفكرة والسياسة ، اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وتزيد الفلاسفة على هذا البرهان حيث يحاولون اثبات النبوة بالدليل العقلي ، وانها خاصة طبيعية للانسان فيقررون هذا البرهان الى غايته ، وانه لا بد للبشر من الحكم الوازع ، ثم يقولون بعد ذلك ، وذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله ياتي به واحد من البشر ، وانه لا بد ان يكون متميزا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليتع التسليم له والقبول منه حتى يتم الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزيف ، وهذه القضية للحكماء غير برهانية كما تسراه ، ان الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه او بالمعصية التي يقتدر بها على تمهرم وحملهم على جادته ، فاهل الكتاب والمتبعون للانبياء قليلون بالنسبة الى الجوس الذين ليس لهم كتاب ، فانهم اكثر اهل العالم ، ومع ذلك فقد كانت لهم الدول والاثار فضلا عن الحياة ، وكذلك هي لهم لهذا العهد في الاتاليم المنخرمة في الشمال والجنوب ( ولكن هذه الدول وهذه الحياة ) بخلاف حياة البشر ( لهم في ) موسى ( و ) دون وازع لهم البتة ( ووجود الوازع لهم ) فانه يمتنع . وبهذا يتبين لك قاطعهم في ( انكار ) وجوب النبوات وانه ( رايهم ) ليس بعقلي . وانما ( وجوب النبوات ) مدرکه الشرع كما هو مذهب السلف من الامة والله ولي التوفيق والهداية ( 8 ) .

### النظرة الواقعية :

البرهان الرياضي يعتمد على مسلمات .

والبرهان الطبيعي يعتمد على موجودات ( الظواهر الحسية ) .

ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لاكثر منهم باضعاف ، وكذلك يحتاج كل واحد منهم ايضا في الدفاع من نفسه الى الاستمانة ببناء جنسه لان الله سبحانه لما ركب الطبع في الحيوانات كلها وقسم القدر بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات المعجم من القدرة اكمل من حظ الانسان فقدرته الفرس مثلا اعظم بكثير من قدرة الانسان وكذا قدرة الحمار والثور و قدرة الاسد والليل اضعاف من قدرته . ولما كان العدوان طبيعيا في الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بخدماته ما يصل اليه من عادية غيره . وجعل للانسان موحا من ذلك كله الفكر واليد ، مالايد مهينة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرياح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النابتة من المخالب الجارحة والثراس النابتة عن البشرات الجاسية الى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب منافع الامضاء . فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات المعجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعته وحده بالجملة ، ولا تفى قدرته ايضا باستعمال الآلات المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصنائع والمواهب المعدة لها ملابد في ذلك كله من التعاون عليه ببناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ، ولا تتم حياته لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء في حياته ولا يحصل له ايضا دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويماجله الهلاك من مدى حياته ويبطل نوع البشر واذا كان التعاون حصل له القوة للغذاء والسلاح للمدافعة ، وتبت حكمة الله في بقاءه وحفظ نومه فاذن الاجتماع ضروري للنوع الانساني والا لم يكمل وجودهم وما اراده الله من اعمار العالم بهم واستخلافه اياهم، وهذا هو معنى المبران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم ، وفي هذا الكلام نوع اثبات للموضوع في نفسه الذي هو موضوع له . وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن لما تقرر في الصناعة المنطقية انه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم . فليس ايضا من المنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق بفضل . ثم ان هذا الاجتماع اذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست آلة السلاح التي جعلت دمنه لعدوان الحيوان المعجم منهم كافية في دفع

جزئي .. بحيث لم يمكن دراستها من كتب لمي كالقطة في الفرة المظلمة . فلا يستطيع الدارس تحديدها موضعها الا باستعمال النور واشعاع النور يتبعه خوف القطة وبالتالي تحركها عن موضعها ...

وكذلك اختلاف النظريات حول تاريخ الارض ونشأتها بين العلماء من ملكيين وجيولوجيين لكل واحد منهم نظرية غير نظرية تفرينه . وكل نظرية من هذه النظريات هي مدرسة قائمة بذاتها . وقد برهن عليها قائلها برهانا لا يحتمل الشك واورد عليها ادلة وشواهد لا تجاوز العقل .. واذا اتنوع هذا العقل بالبرهان على النظرية الواحدة تعرض عليه . لسوف يشك اذا استعرضها جميعا على هذا الشكل غير المنطقي .. مثلا:

- 1 - اصل الارض كتلة ملتهبة انفصلت عن الشمس ..
- 2 - اصل الارض كتلة من كوكب ضخم انفجر في الفضاء ..
- 3 - اصل الارض تجمع غازات في الفضاء تجمدت فيما بعد .. وهكذا ..

اذن استطيع ان اعرف البرهان بانه عملية سحرية ، الغاية منها ارضاء الغرور البشري .. بحيث ان الانسان والمقل الواعي يبه بالذات لا يستطيع ان يدرك دنيا بلا حدود . ولا شيئا بلا بداية ونهاية . ولا ان يدرك امرا غير ملموس بحواسه فياتي البرهان العلمي لكي يشبع هذا الغرور المتجدد في كل لحظة نضع فيها قدمنا على باب جديد من ابواب الغيب والسر والكتان . التي تحيط بعالمنا العام والخاص من كل جانب . ملتصقين بجوانب البرهان الراحة .. ولكنهما راحة مؤقتة بحيث ما يشبه البرهان اليوم قد يتقدم في الغد .

بالرغم مما تقدم ، كان لابد لي من ان اسير هذا المسار . فلتخذ لبحثي اميزة البيان في نشأة الانسان . مسلمات معينة مع اساس فكري معين ، انطلق منه واتيم البراهين على ضوءه . بحيث ان لكل نظرية اساسا فكرية ( ايدولوجية ) معينة تقوم عليها .

وسوف لا يضير بحثي ان اسير به في ركاب علمائنا العظام الذين اثاروا للبشرية طريقها في العفارة ، ووضعوا لها الاسس الثابتة لخطف العلوم . على الغالب - وهؤلاء المبائرة امثال : ابن

والبرهان التاريخي يعتمد على نظريات ( الفرضية الخفية ) ...

وغالب هذه الاسس استواها ما تبني عليها العلوم صرحها . تتارجح ذات اليمين وذات الشمال ، بين الظن واليقين ... بين الحتمية والاحتمال . وبين الواجب والامكان .

فالبرهان الهندسي الذي يقوم على اساس مسلمات اقليدس هو غير البرهان الذي يقوم على اساس مسلمات لوبتشمسكي ، الذي اعتبر المكان على شكل السطح الداخلي للاسطوانة ، تقول فرضيته : من نقطة خارجة من مستقيم يمكن رسم خطوط لا حصر لها موازية لهذا المستقيم . ونتيجة لهذه المسئلة اصبح مجموع زوايا المثلث اقل من قائمتين . ويمكن ان تصور ان الخطين المتوازيين قد لا يلتقيان ابدا على خلاف ما قاله اقليدس ، كما ان هذا وذاك غير البرهان الهندسي الذي يقوم على اساس مسلمات المالمس الالمانى ريمان . الذي فرض المكان كرويا ، تقول فرضيته : من نقطة خارجة من مستقيم لا يمكن رسم خط واحد مواز لهذا المستقيم ، وفي مثل هذا المكان يمكن ان تصور كل الخطوط متقاطعة لانها تكون شبيهة بخطوط الطول على الكرة الارضية ، تتلاقى وتتقاطع عند القطبين . ونتيجة لهذه المسئلة يصبح مجموع زوايا المثلث اكثر من قائمتين . ونحصل بالنتيجة على هذا التقرير المتناقض منطقييا الصحيح عمليا : مجموع زوايا المثلث تساوي قائمتين - اقليدس - مجموع زوايا المثلث اكثر من قائمتين - ريمان - مجموع زوايا المثلث اقل من قائمتين - لوبتشمسكي - .

كما ان البرهنة على مبدا التقيد والحتمية في الطبيعة ( هذا المبدا هو الايمان بوجود نظام ثابت عام تخضع له جميع الظواهر في الطبيعة ) لم تسلم من كونها قائمة على اساس الطريقة الاستقرائية ( وهي تعميم الحكم الصادر على بعض افراد الفئة على جميع الافراد في الفئة ... اي الانتقال من المعلوم الى المجهول . وهذا يناقض قواعد المنطق القائلة : - صدق الحكم الجزئي ليس دليلا على صدق الحكم الكلي - ) ولكن الذي دم هذه البرهنة هو العقل الذي لا يقبل بان تسود الطبيعة الفوضى ، دعها بالرغم من الوقائع المادية ، ايضا ، التي تثبت انفلات عالم الفرة من مبدا التقيد والحتمية ، وعدم امكانية تحديد وضع الكهارب وسرعتها في الوقت الحاضر . ( يقال ان تقيد السذرة

سينا . في الطب — وابن الهيثم في البصريات والضوء —  
والرازي وجابر الكوفي ؛ في الكيمياء — وابن فرناس  
في الفلك والطيران — والفارابي في النفس والجبر  
والإعداد — وابن رشد ، والفزالي . في الفلسفة  
والإشراق وما وراء الطبيعة .. وكثير غيرهم .. قد بنوا  
نظرياتهم العلمية على أساس النظرة الإسلامية العامة  
وانطلقوا منها ولم يتجاوزوا حدودها .

ولم يكن نهج هذا قائما على أساس التقليد  
الاعمى . بل هو اعتقاد عقلي وتمسك علمي للأسباب  
التالية :

(1) لا نستطيع ان نتصور هذا الانسان القديم  
باجهزته .. المعقد بتركيبه .. الهادف بفطرته .. الذي  
يتألف من مجموعة معاليات روحية ومادية .. دون  
منهج يضبط خطاه على الارض دفعا للحيرة . ويحدد  
له معاني النور والإشراق في عالمه الخاص والعالم  
دفعا للضياع في ظلمات النفس وعمتها .

.. لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا — الآية  
48 المائدة .

فكان الدين هدية من الخالق الى المخلوق .  
وهداية له على درب التمر والاجبار .

(قال : ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى .  
الآية 50 طه .)

(2) وهذا الانسان بما يملك من الاحاسيس والمشاعر  
الرائقة . وبما ركب فيه من الدوافع الفطرية  
المتباينة . مثل : دافعي : الحب والبغض — دافعي  
الخوف والغضب — دافعي التملك والجوع .. الخ .  
لا يمكن ان يسير هذا المركب المعجب بدون ناموس  
عام ثابت يعتد به . ومنهج قوي لا ينحرف ولا  
يتراجع يفسر له العلاقات بين هذه الدوافع  
المتناقضة من جهة وبين المشاعر والاحاسيس من  
جهة اخرى ..

ا ونفس وما سواها . فآلهما نجورها وتقواها .  
قد افلح من زكاهما . وقد خاب من دساها .. ا سورة  
الشمس .

منهج فيه معنى السمو والكمال ، يسمح للبراهين  
العلمية ان تحوم حوله فتمسيه نارة وتخطوه اخرى  
حتى تصل الى الحقيقة .

( سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى  
يتبين لهم انه الحق — فصلت 53 ) .

(3) والاسلام الذي هو خاتم الديانات السماوية .  
واكملها تشريعا . واثبتها رواية ونقلها واقربها من  
انسان اليوم نزولا من السماء .. هذا الاسلام قد  
برهن على صحته واثبت صدقه وتفوقه وموضوعيته  
على طول التجربة التي عاشها خلال اربعة عشر  
قرنا . واذا كان هناك من يساري ، ويجادل في غير  
حق . ويسلك سبيل السفسطائيين في الجدل  
المتعيم . فسوف لا يجد مناصا من الأذهان أو السكوت  
على جهود امام النصوص الإسلامية التي كشفت  
الستر عن المستقبل فتكلمت عنه بايجاز احيانا  
وباسهاب احيانا اخرى ، وكذلك النصوص التي  
جاءت تستشهد بالظواهر الكونية كدليل على عظمة  
الله ؛ لم تتجاوز هذه النصوص الحقائق العلمية  
المثبتة حتى عمسنا هذا ، والامثلة على ذلك وفيرة  
ويجدها كل من استقرا النصوص القرآنية والاحاديث  
النبوية الصحيحة وكان على جانب من الاطلاع  
والمعرفة وبعد النظر والانصاف .. وسأثبت بعضها  
هنا للاعجاز ..

ا — في الاشارات الفلكية والحقائق الكونية :

(1) الارض تدور .. قال تعالى : ( وترى الجبال  
تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله  
الذي اتقن كل شيء .. — النحل — )

(2) والكواكب والنجوم كلها تدور .. ا والشمس  
تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر  
قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا  
الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق  
النهار ؛ وكل في فلك يسبحون . — يس — ا .  
والنوين في ( كل ) موضا عن الاضافة التي هي  
بمعنى كل ما في الفضاء .. وكلمة يسبحون تدل على  
مادة العوالم الاصلية ( الاثير ) التي يسبح بها كل  
شيء .

(3) العوالم منظومات من الكواكب المتجاذبة ..  
ا والسماء ذات الحيك — وما لها من مروج — وفي  
مطلع سورة الملك : .. الذي خلق سبع سماوات  
طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع  
البصر هل ترى من فطور ) .

14 المطر من الأرض وإلى الأرض .. ( أ .. والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها .. )

15 والمطر يهطل من السحاب المترام .. ( ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله - النور 43 - ) السودق : المطر .

16 والرياح هي التي تسوق الغيوم .. ( الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا . فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده . إذا هم يستبشرون - الروم 49 - )

17 والأرض بعدما تشكلت طبقاتها نهضت فيها سلاسل متعددة من الجبال لكي تتماكك تلك الطبقات فلا تنزلق وبالتالي لتتوازن الأرض وتستقر الحياة عليها ..

( والجبال أوتادا - والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شيء موزون - الحجر - والتي في الأرض رواسي ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون - النحل - ) . وفي الآيات الآتية يلاحظ الانسجام بين مفهومنا وبين مفهوم أحدث النظريات الجيولوجية حول بعض المراحل التكوينية التي مرت بها الأرض .. ( والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . مناها لكم ولانعامكم - النازعات - )

18 الطيران في الأجواء العالية يؤثر على جهاز التنفس وجهاز دوران الدم ، فيرفع الضغط ويعيق التنفس ، ويصحب ذلك امراض نفسية وجسدية اخرى .. ولننظر الى هذه السورة البليغة المعبرة عن الواقع .. ومن يرد ان يضلّه يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء .. - الانعام 125 - .

19 النفاذ من الجاذبية الأرضية الى الفضاء ، ثم من الفضاء القريب الى فضاء آخر هذا ممكن ولكن بشرط .. ( يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان .. - الرهمان - )

10 الخطوط المرسومة على البصمات تختلف من انسان الى آخر ، وقد لا تتفق بصمات لانساتين في العالم ، ولما اكتشفت هذه الخاصة استعملت كعلامة مميزة يبرهن بها الانسان على تقريراته وتوقعاته . والقرآن الكريم قد أشار الى هذه الخاصية في معرض القدرة والاعجاز فقال : ( .. احسب الانسان ان نجوع مظالمه ، بلى ، تادرين على ان نسوي بناته .. - القيامة - ) .

ب - اخبار الله تعالى بانتصار الروم على فارس قبل تسع سنوات من الحادث :

الم . غلبت الروم في اذن الأرض . وهم من بعد غلبهم سيفليون في بضع سنين . - روى ابن جرير - باسناده - عن عبد الله بن مسعود - قال : كانت فارس ظاهرة على الروم ، وكان المسلمون يحبون ان تظهر الروم على فارس ، لانهم اهل كتاب وهم اقرب الى دينهم . فلما نزلت : ( ألم . غلبت الروم في اذن الأرض وهم من بعد غلبهم سيفليون ، في بضع سنين ) . قالوا : ( أي المشركون ) : يا ابا بكر ان صاحبك يقول : ان الروم تظهر على فارس في بضع سنين . قال : صدق . قالوا - هل لك ان نقامر بك ( أي نراهنك - وجاء في خبر آخر ان ذلك كان قبل تحريم الرهان بوصفه من الميسر ) فبايعوه على اربع قلائص الى سبع سنين . مضت السبع ولم يكن شيء . ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ، فذكر ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( ما بضع سنين عندكم ) : قالوا : دون العشر . قال ( اذهب فزادهم وازدد سنين في الاجل ) . قال لما مضت السنين ، حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس . فرح المؤمنون بذلك ( ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ) - الظلال ج 21 ص 25 .

ج - اخبار الرسول الكريم عن العواذ التي ستكون بعد وفاته :

1) بشر محمد صلى الله عليه وسلم بان كنوز كسرى وتيصر ستنتفيق في سبيل الله .. ( عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد مات كسرى فلا كسرى بعده ، واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنتفيق كنوزهما في سبيل الله . » - صحيح مسلم - كتاب الفتن - ج 8 ص 186 - .

وفي هذا إشارة الى السيادة التي استحققتها  
رأية الله على ملك كسرى وتيمصر .

12 لقد مرت فترة على المسلمين بعد استشهاد عمر  
رضي الله عنه مليئة بالفتن .. وقد أخبر عنها الرسول

( عن اسامة : ان النبي صلى الله عليه وسلم ،  
اشرف على اطم من اطم المدينة ثم قال : « هل  
ترون ما ارى ؟ .. اني لارى مواقع الفتن خلسلال  
بيوتكم كمواقع القطر » . - المرجع السابق 167 -

13 السبئية فئة ضالة اظهرت الاسلام وابطنت الكفر  
ترجع نسبتها الى عبد الله بن سبا اليهودي .  
لقد عملت هذه الفئة بالبغى بين المسلمين ففرقت  
صوفهم واوقعت الحروب بينهم وكانت سببا في قتل  
الكثير من الصحابة الكرام ، وقد أخبر الرسول من  
قتل بعضهم :

( عن ام سلمة ان رسول الله صلى الله عليه  
وسلم قال لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » - المرجع  
السابق -

14 عثمان بن عفان رضي الله عنه من المبشرين بالجنة  
وباستشهاد . فقد ورد ان الرسول كان مع ابي بكر  
وعمر وعثمان على جبل احد . فاهتز الجبل  
فقال الرسول مخاطبا الجبل « اثبت احد ان عليك  
الانبي وصديق وشهيدان » . ومن  
الحديث الطويل المشهور الذي اخرجه البخاري  
ان ابا موسى الاشعري استاذن لعثمان على  
رسول الله ، فقال الرسول : « ائذن له وبشره  
بالجنة معها بلاء يمسيه » . - البخاري ج 9 ص 69 .

15 الحسن بن علي سبط رسول الله هو الذي اجهد  
على الفتنة وتبرها ومهد طريق الصلح بين المسلمين  
ولقد تنبأ الرسول بذلك والحسن ما زال صغيرا .  
قال ابو بكر : بينا النبي يخطب جاء الحسن فقال  
النبي صلى الله عليه وسلم : « ان ابني هذا سيد  
ولعل الله ان يصلح به بين فئتين من المسلمين .  
- المرجع السابق - .

16 لقد سادت شرمة الاسلام ترونا طويلة كانت  
خلالها تترجح - كدولة - بين القوة والضعف ،  
وذلك بحسب الاناس الذين يمثلونها ، ويعتبر الغاء  
الخلافة الذي اعقبت اعلان الدستور في تركيا في عام

1908 على يد مصطفى اتاتورك والاتحاديين الاتراك  
آخر ضربة توجه الى الدولة الاسلامية ، حيث لم  
يتم لها قائم بعدها . اللهم الا ما قام بحدود ضيقة  
جدا وفي اطراف متباعدة خلال السنين القليلة التي  
نعيشها ... ولكن الغالب على الممالك الاسلامية  
هو ما انتشر من دعوي الالحاد والمادية والوطنية  
والقومية منذ الغاء الخلافة وحتى عصرنا هذا .  
وفي الحديث الآتي تحليل رمزي مسبق ومقتضب  
لهذه الفترة من التاريخ :

( قال حذيفة بن اليمان : كان الناس يسألون  
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت  
اسأله عن الشر مخافة ان يدركني ، فقلت : يا  
رسول الله انا كنا في جاهلية وشر فاجأنا الله بهذا  
الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال نعم .  
قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم  
وبه دخن . قلت وما دخنه ؟ قال : قوم يهدون بخير  
هدى تعرف منهم وتنكر ، قلت : فهل بعد ذلك الخير  
من شر ؟ .. قال : نعم دهاء على ابواب جهنم من  
اجابهم اليها فذفوه فيها . قلت يا رسول الله صلهم  
لنا ، قال : هم من جلدتنا ويتكلمون بالسنتنا ، قلت  
لما تأمرني ان ادركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة  
المسلمين وامامهم قلت فان لم يكن لهم جماعة ولا  
امام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو ان  
تمض باصل شجرة ، حتى يدركك الموت وانت على  
ذلك - البخاري - ج 9 ص 65 - ) .

د - اخبار الرسول الكريم عن الحوادث التي تسبق  
قيام الساعة :

1) عندما نكت اليهود يهودهم مع رسول الله في  
المدينة قاتلهم وشتمهم في البلاد ، ولم يكن لهم بعدها  
دولة . ولكنه أخبر عن تجمع سيكون لهم ، وقتال  
سيتم بين المسلمين وبينهم ، فهناك عدة روايات في  
الصحاح وغيرها ، كل رواية لها ميزة وتنفرد  
باشارة ، ولكنها تجتمع كلها على ما ذكرت ، فمن  
هذه الروايات :

( عن عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله  
عليه وسلم قال : « تقاتلكم اليهود فتسلطون  
عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي  
ورائي ماتته » . ) - صحيح مسلم ج 8 ص

188 - في هذا الحديث إشارة الى انهم هم المعتدون بالاشهاد الى تجمعهم حيث لا يقاتل قوم الا ولهم دولة ( وقد حدث ) .

ب) عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يخشبوا اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي قتال ماقتله الا الغرقد فإنه من شجر اليهود . - المرجع السابق - اذا كان شجر الغرقد لا يزرع الا في فلسطين - كما قال لي تائل - ففي الحديث إشارة الى مكان تجمعهم ، ولعل هذا الشجر قد نسب اليهم لانهم اكثر الناس زراعة له في زمن معين وكان معين .. ولقد شاهدت هذا الشجر على جبال الخليل فهو شجر قصير القامة كثيف الاغصان والاوراق ، اغصانه على تماس مع الأرض مما يجعل له جيوبا تتسع للاختباء ، ويحمل ثمرا صغيرا بقياس حبة الفول اليابسة . وهو قريب بالطعم من الخرنوب .

ج) ومن اعجب الاحاديث التي سمعتها - ولا اعلم مدى صحتها - هذا الحديث الذي يحدد مكان القتال بين اليهود والمسلمين :

« لتقاتلن اليهود على نهر يقال له الاردن انتم على شرفيه وهم على غريبه » .

واما الحديث عن الفئتين العظيمتين اللتين ستقتلان ويكون بينهما مقتلة عظيمة .. ومن كثرة الزلازل والشرط وتقارب الزمان .. فالحديث هنا طويل وابراد الشواهد عليها وتحليلها ضرب من المهال في هذا البحث بالذات .. وانما اثبت هنا حديثا نبويا ، عجبا ، يمدنا باليقين الذي لا تشوبه شائبة من صدق الاسلام وكون رسوله لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى .. هذا الحديث الذي وقعت اكثر لقراءته ولسنا وقوعها بايدينا وشاهدناه بأم أعيننا قد قرأته في كتاب ( محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار - لسيدى الشيخ محيي الدين بن عربي ) وهو من المطبوعات الاثرية بالخط الحجري في مكتبة استاذي الشيخ محمد أبي الفرج الخطيب .. هذا نصه :

أ) وروينا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الحجة ان النبي صلى الله عليه وسلم اخذ بقلعة باب الكعبة ثم اتبل بوجهه على الناس فقال يا معشر المسلمين ان من اشراط القيامة امانة الصلاة واتباع الشهوات وتكون امراء خونة ووزراء مسقة فوثسب سلمان الفارسي رضي الله عنه فقال ، يا بني انتست وامي يا رسول الله ان هذا ليكون . قال نعم يا سلمان ، وعندها يكون المنكر معروفا والمعروف منكرا قال : ويكون ذلك . قال نعم يا سلمان ، وعندها يذوب قلب المؤمن في جوفه كما يذوب الملح في الماء مما يرى ولا يستطيع ان يغيره . قال او يكون ذلك ؟ قال نعم يا سلمان . ويؤتى الخائن ويخون الامين ويصدق الكاذب ويكذب الصادق ، قال او يكون ذلك قال : نعم يا سلمان ان اولسى الناس قوم المؤمن بينهم يمسي بالخائفة ان تكلم اكلوه وان سكت مات بغيظه . يا سلمان ما قدست امة لانتم من قوبها لضيفها ، قال : ان يكون ذلك ؟ قال نعم يا سلمان . عندها يكون المطر قيطا والولد غيطا وتليض اللثام غيضا وتغيب الكرام غيظا ، قال ويكون ذلك ؟ قال : نعم يا سلمان عندها يعظم رب المال ويباع الدين بالدنيا وتلتمس الدنيا بعمل الآخرة واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وتركب ذوات الفروج السروج فعليهم من امي لعنة الله ، يا سلمان عندها يلي امي قوم جنتهم جنة الناس وقلوبهم قلوب الشياطين ان تكلموا قتلوه وان سكتوا استباحوهم لا يرحمون صغيرا ولا يوترون كبيرا لساء ما يزرون ونوطا حرمتهم ويحار في حكمهم عند ذلك تكون امارة النساء ومشاورة الاماء ونفوذ الصبيان على الناس وتكثر الشرط وتتحلى ذكور امي بالذهب ويتهاون بالزنا وتظهر الثينات ويتغنى بكتب الله وتكلم الروبيضة ، قلت يا بني انت يا رسول الله وامي ، وما الروبيضة ؟ قال : يتكلم في امر العامة من لم يتكلم قبل ، قال او يكون ذلك يا رسول الله . قال نعم يا سلمان ، عندها تزخرف المساجد كما تزخرف الكتائب والبيع وتحلى المصاحف بالذهب وتطول المنابر وتكثر الصفوف والقلوب متباغضة والاسن مختلفة ونوالهم لمة من اعطى على لسان من اعطى شكر ومن منع كفر قال او يكون ذلك قال نعم يا سلمان . عند ذلك ياتي سبانيا من المشرق والمغرب تكون من امي لويل للضعفاء منهم وويل لهم من الله ان تكلموا قتلوا وان سكتوا قتلوا موت على طاعة الله خير من حياة على معصية الله ، قال ويكون ذلك ، قال نعم يا سلمان . عندها تشارك المرأة زوجها

ام أبي . وذلك ما اثبتته ايضا . اصحاب النظريات العلمية في السابق وفي الحاضر كأمثال العالم جيمس جينز - في الفلك - والعالم الدكتور اليكسس كاريل - في علم الحياة - والعالم انشتاين - في الذرة والفضاء - .. الخ وبهذا يتحقق قول الله تعالى :  
 اسئريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق .

وهذا يتبعه بالمقل كون الانسان لم يترك سدى . ولا بد له من مرشد ودليل في خضم هذه الحياة الزاخرة بالمتناقضات قال : فمن ريكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى .. طه - ا .

ولا بد هناك من خط عام وعميق في نفس الوقت لكي يسير عليه خليفة الله في ارضه .. فكان الكتاب ( او قل القرآن .. وهو لغة الضم والجع ) الذي خطه القلم على اللوح المحفوظ من عالم الازل والذي علمه الروح الامين رسول الله الى الانبياء والمرسلين جبريل عليه السلام ( مكان ينزل باحكامه على الانبياء والرسل بحسب ما تحتاجه الامم والقبائل التي ينتمون اليها .

وفي خاتمة المطاف ضم القرآن وجميع كل هذا نسمى قرآنا . وثبت به كلمة الله ومنهاج الله القويم لهذا الانسان .. نجاه الخطاب للبشرية : اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ، والدليل على هذا من كتاب الله جل وعلا . ايضا :

« الرحمان . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان »

هذه الآيات الرائعة ذات الوزن الموسيقي البديع تحمل اعنى المعاني . وادق التعبير .

انها مطلع الاعلان العام - سورة الرحمان - الموجه الى العالمين الانسي والجني . ومفتاح الخطاب في ساحة الوجود .

هذا الاعلان يذكر بالآلاء والنعم .. ويستجلب القلوب الى العراطف المستقيم .. ثم يهدد وينوعد الذين يميلون عنه بالاخذ الشديد والمداب الاليم . وهو بين كل لفظة واخرى يسأل على صيغة الاستفهام التقريرية : فبأي آلاء ريكما تكذبان ( مكررا ذلك احدى وثلاثين مرة .. ويرد الثقلان بالقول : ( ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب ملك الحمد ) (9) .

في امره ويمحق الرجل والده ويبر صديقه يلبسون جلود الضان على قلوب الذئاب مما لهم شر من الجيفة قال او يكون ذلك يا رسول الله قال نعم يا سلمان . عندها تكون عبادتهم فيها فيما بينهم التلاوة لها فيما ولا بد يسمون في ملكوت السموات والارض الانجاس الارجاس ، قال ويكون ذلك قال نعم يا سلمان . عند ذلك يتخذ كتاب الله مزامير وينبذ كتاب الله وراء ظهورهم يعطلون الحدود ويبيتون سنتي ويحبسون البدعة ولا يقام يومئذ بنصر الله لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر عندها يفار على الغلام كما يفار على الجارية ويخطب كما تخطب النساء وبهيه كما تهيه المرأة . عندها تقارب الاسواق قلت بابي انت وامي يا رسول الله وما تقارب الاسواق . قال يقول لا ابيع ولا اشترى ولا رازق غير الله . يا سلمان عندها تليهم الجبابرة ويمنون حقوقهم ويملاون قلوبهم رهبا . فلا ترى الا خائفا مرعوبا عند ذلك يرفع الحج فلا حج . يحج كبار الناس للهوى واوساط الناس للتجارة وفقره الناس للرياء والسبحة ، قال او يكون ذلك قال نعم يا سلمان . الحديث ، وسياتي معناه في هذا الكتاب مستوفى من حديث الكناني وقد انتهى المجلس من محاضرة الابرار .. - ص 39 - 40 الجزء الاول - ا .

وبعد ، فلا سبيل الى نكران الاسلام . والوارية عن سبيله المستقيم .. وخاصة بعد ان ثبت صحته . وتبين للقاصي والداني صدق نصوصه ومروياته .

لهذا كله جعلت الاسلام اساسا فكريا لبحث ( ميزة البيان في شأن الانسان ) والله ولي التوفيق .

### الانسان والبيان :

اذا آمنا ان الانسان مركب شديد التعقيد تسير كل خلية من خلاياه بنظام عجيب : واذا علمنا ان عالم الفلك يمج بالكواكب والنجوم : وانه يسير ايضا بنظام عجيب دقيق : واذا تارنا بين هذا الانسان المذهل التركيب ، وبين ذلك الكون بنظامه الدقيق . وحجمه الواسع الشاسع ، لو وجدنا ان الانسان مثله كما قال حافظ ابراهيم :

« وما انا الا ذرة قد حوتها ذرة في نساء ربي تدور »

اذن فالانسان لا يمكن ان يقوم بذاته ولا بد من يد خفية وقوة لا يراها ولا يدركها قد اوجدته تمهرا وسوف تخرجه من هذه الحياة تمهرا وهي تتحكم بصيره شاء



ولم ينس هذا الاعلان ان يذكر الانسان والجان  
باصل النشأة وخاتمة المطاف ( كل من عليها من )  
والذي يوجهنا اليه البحث من الفيض الطاهر العزيز  
لهذا الاعلان هو اصل النشأة وميزة البيان لنعود الى:

( الرحمن ) .. اسم من اسماء الله الحسنى يلد  
الرحمة العظمى التي اشتقت منها كل رحمة والتي  
تعود الى فضلها كل نعمة ويضاف اليه فيضها كل منة  
كانت وستكون فاسم الرحمن اذن خليق بهذه البداة،  
جدير بهذا المطلق في هذا الاعلان العام ..

( علم القرآن ) .. هذه الآية جملة لعملية جاءت  
بصيغة الماضي . الفاعل فيها الرحمن جل وملا ،  
والفعل الماضي ا علم ا يحتاج الى مفعولين فكسان  
الاول ا القرآن ا والثاني محذوف قدره كل مفسر  
بما الهه الله والاغلب هو جبريل عليه السلام الذي  
كان ينزل بالوحي على الانبياء والرسل .

ومجىء هذه الآية ا علم القرآن ( قبل ا خلق  
الانسان في هذا الوجود وتسلكه طريق الامن  
انما له دلالة على كون هذا العلم قد سبق خلق  
الانسان بالفعل .

والقرآن تلك النعمة العظيمة التي تعدد طريق  
الانسان في هذا الوجود وتسلكه طريق الامن  
والسكينة والنجاة : فلا يكون ضائما في متاهات الكون  
والنفس ولا شريدا من حضرة الروح .

لذلك كان القول وتعليمه جبريل قبل خلق  
الانسان .. ( ملا اتسم بواطن النجوم . وانه لتسم  
لو تعلمون عظيم . انه لقرآن كريم . في كتاب مكنون .  
لا ينسه الا المطهرون . تنزيل من رب العالمين )  
- الواقعة 75 - 80 - .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن  
المعاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه  
وسلم يقول : ( كتب الله مقادير الخلائق قبل ان يخلق  
السموات والارض بخمسين الف سنة - قال -  
وعرشه على الماء ) . - الجزء 7 - باب القدر - .

ومن وصايا عبادة بن الصامت لابنه وهو على  
فرائض الموت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه  
وسلم يقول : ( ان اول ما خلق الله القلم ، فقال له

اكتب ، فقال رب وماذا اكتب ، قال اكتب مقادير كل  
شيء حتى تقوم الساعة .. ) ذكر الحديث بأكمله ابو  
داوود في سننه (10) .

( خلق الانسان ) .. بصريح العبارة ( خلق الانسان )  
لكي لا يضيع هذا الانسان في بحر التساؤلات  
والتكهنات .. خلق الله الانسان بكل ما فيه من اجهزة  
وخلابا ويكل ما معه من مواهب وصفات وميزات  
خلقه .. واوحى اليه بصريح العبارة ايضا مبينا لماذا  
سويا .. واوحى اليه بصريح العبارة ايضا مبينا لماذا  
خلقه .. ( وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون .. )  
ويتعلق بالعبادة مفهوم المعرفة معرفة الله جل وعلا.

وكيف خلقه : ( الله الذي خلق السموات  
والارض وما بينهما في ستة ايام ثم استوى على العرش  
ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع انما تتكبرون .  
يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يخرج اليه في يوم  
كان مقداره الف سنة مما تعدون . ذلك عالم الغيب  
والشهادة العزيز الرحيم . الذي احسن كل شيء  
خلقه وبدا خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من  
سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه  
وجعل لكم السمع والابصار والانفذة قليلا ما تشكرون  
- السجدة - وسياتي معنى توضيح ذلك في قصة  
البشرية الاولى .

( علمه البيان ) .. البيان هو التعبير والتوضيح  
وآيته كبيرة تبدأ من الرئتين وما فيها من تصببات  
وحجرات الى الحنجرة ثم الاحبال الصوتية والحلق  
واللسان والاسنان وما يربط ذلك من اعصاب تتصل  
بالدماغ .

لماذا اوردت ميزة البيان عن غيرها من صفات  
الانسان علما بان الآلية التي تؤدي اليه ، تقريبا هي  
نفس الآلية الموجودة في الحيوان الناطق ( الببغاء -  
نوع من انواع الطيور ) وموجودة ايضا في الحيوان  
الابكم ( سائر الحيوانات ) ..

وهنا سر الاعجاز الالهي ، يتجلى بهذا الابرار،  
لفنفس الآلية تجعل من الحيوان مخلوقا ابكم لا  
يستطيع التعبير عما يجيش في صدره حيث لم نسمع  
على مدى التاريخ ان حيوانا واحدا قد نطق .

وهذه الآلية بالذات جعلت من الببغاء ذلك  
الطائر الاليف ، مخلوقا ناطقا ولكن بدون وعي ولا

ادراك ، وهنا ايضا لم يذكر لنا التاريخ على مدها ان  
ببغاء واحدا قد اجتاز مرحلة النطق الى مرحلة البيان  
والتعبير مما يخلق في حناياه مرحلة النهم والادراك  
الصحيح . وشأن الببغاء شأن المرد الذي يرجع  
الصوت كما هو ويحاكيه فيما يسمع منه . وما هذا  
ذلك فلا نطق ولا كلام .

وبنفس الآلية كان الانسان مخلوقا ناطقا محبرا  
مدركا يبين عن احساساته بالنطق ويعبر عنها  
بالمسات ويرسم خوالج نفسه بدفقات من الهواء  
تخرج من بين اسنانه ولسانه .

لهذا كله امرد البيان وميز في خلق الانسان  
ا خلق الانسان .. عليه البيان ) . لقد جعل الله لهذه  
الآلية سرا وميزة في الانسان ، فلو قال الله - وقوله  
الحق - خلق البيان : لقلنا : سوف ينطق الحيوان  
لانه يتمتع بنفس الآلية او لكان من الواجب ان تختلف  
آلية الحيوان عن آلية الانسان ، والواقع انها واحدة  
في الاثنين لظهور القدرة والابداع مختلفة في النتيجة  
حيث مكنت الانسان من البيان الكامل ولم تمكّن  
الحيوان الا من بعض الاصوات .

وثمة سؤال يطرح نفسه في هذا المجال : متى  
نطق ابو البشرية - آدم - هل كان ذلك عقب تيباه  
بشرا سويا أم انه عاش فترة زمنية بدون نطق ،  
والجواب : انه لا يعقل أن يكون ناطقا وخالقه يقول  
ا وصوركم فأحسن صوركم .. ) ولابد لهذا المخلوق من  
ان يتعامل مع بيئته بحسب ما رسم له من غايات  
وأهداف ، والتعامل يكون مبتورا لو كان هذا المخلوق  
ابكم لا يدرك شيئا ولا يستطيع التعبير عنه .

وآدم تعامل مع بيئته بالكلام والنطق منذ اول  
لحظة لدبيب الحياة في جسده والدليل على ذلك  
نستخرجه من قصة البشرية الاولى التي ذكرها الله  
بقوله الكريم :

( واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض  
خليفة ، قالوا : اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك  
الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني  
اعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم  
على الملائكة ، فقال : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم  
صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك  
انت العزيز الحكيم . قال يا آدم انبئهم باسمائهم ،

علما انبأهم باسمائهم قال : ألم اقل لكم اني اعلم غيب  
السموات والارض واعلم ما تبذرون وما تكتمون . واذا  
قلنا للملائكة اسجدوا لآدم سجدا الا ابليس ابى  
واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت  
وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا  
هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فآزلهما الشيطان  
عنها فآخراهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم  
لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين .  
فقلنا آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب  
الرحيم - سورة البقرة - .

ومن سورة الامراء : ( فوسوس لهما الشيطان  
ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال : ما  
نهاكما ربكما من هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او  
تكونا من الخالدين . وقاسمهما اني لكما لمن  
الناصحين . فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت  
لهما سوآتهما وطفقا بخمفان عليهما من ورق الجنة  
وناداهما ربهما ألم انهكما من تلكا الشجرة واتل  
لكما ان الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا  
انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من  
الخاسرين .

من هذا السرد الخاطف لكلام الله تعالى في قصة  
البشرية الاولى نستخرج عدة ملاحظات تناسب  
موضوعنا أهمها :

1 - خلق آدم كان امجازا للملائكة واظهارا لقدرة  
الله على تكوين مخلوق مادته من أهد العناصر  
ولكنه سام سمو الروح التي فيه ، عالم لامور  
لا تعلمها الملائكة الذين يذوقونه بالعنصر  
ويتمالون عليه بالنور .

2 - ان ما فرس في لحظة آدم من دوافع اساسية  
تدفعه الى التعامل مع هذه الارض واكتشاف  
خيراتها وتحقيق خلافة الله فيها ، تلزمه ان  
يسمي كل شيء باسمه مما سيوضع تحت يديه،  
ومما يراه في بيئته ، فكان ان عليه الله اسما  
كل شيء بطريق الالهام ، فلما نزل الى ساحة  
المبارزة مع الملائكة كان يجيب على كل سؤال  
ويسمي كل شيء ، والملائكة لا تستطيع ذلك ،  
وتمت كلمة ربك ( .. ألم اقل لكم اني اعلم غيب  
السموات والارض واعلم ما تبذرون وما تكتمون )

3 — ان فكرة الخلود ، والملائكية التي استطاع  
بها الشيطان ان يطغى آدم وزوجه وكذلك  
احساسهما بالخطيئة ، وطلب العفو بالاستغفار ،  
ومن ثم الرجوع والتوبة .. كل ذلك يتطلب لغة  
عالية ، ومنطقا رفيعا ، وبيانا اصيلا ، للتعبير  
منها .

اذن فالمحتبة الاولى ان الله خلق آدم وسواه  
بيديه على احسن صورة واكمل شكل ناطقا سامعا  
ناطقا مبينا ، وانه نطق من اول لحظة تنسم فيها  
نسيم الحياة وتعامل مع بيئته وناسه باسمى لغة  
واقى تعبير ...

نسبحان الذي يقول للشيء — اذا اراده — كن  
.. فيكون . وصدق الله اذ امتن على الانسان بقوله :  
الم نجعل له عيين . ولسانا ولسنتين وهدىنا  
النجدين .

والسؤال الذي يتردد في هذا المجال : ما هي  
هذه اللغة التي تكلم بها الانسان الاول ؟؟

### اللغة الام :

واوبة صغيرة الى التاريخ لتتصور من خلالها  
على شكل ممكن وتريب اول السلسلة البشرية  
منطلقين من آدم وهو ذكر نمرد على الارض والـ  
جانبه زوجه حواء الانثى الفردة .

مقد عاش آدم على الارض زهاء 1.000  
سنة ، وقد انجبت له حواء عشرين بطنا في كل بطن  
فكر وانثى . وبلغت ذريته في حال حياته تربية 40  
الف نسبة ا في — بوذ — وقد اوصى قبل موته الى  
ابنه ا شيث . سار آدم في حياته على نهج الصحف  
التي نزلت عليه فهو اول نبي واول رسول واليه  
ترجع مبادئ علم كل شيء استلزمته حياة البشرية  
الاولى .. ومات قبل الطوفان بنحو (726 سنة) بعد  
ان ادى الى البشرية ما يلزمها من دواعي البقاء  
والاستمرار والتحسن . وبعد ما افرغ اوعية العلق  
الذي اودعه الله عنده .

واما ا شيث ( الابن الوصي لمقد ولد في العام  
130 من حياة ابيه آدم . عاش في مكة يهيج ويمتدح .  
وجمع الصحف التي نزلت على ابيه وضمها الى

الصحف التي نزلت عليه وهكذا كان شأن الانسان  
باربباطه بالسماه لمي كل فترة شيء جديد وعلوم  
جديدة تناسب الانسان في تطلماته الجديدة فيضها  
الى سابقتها ويسير على نهجها — وشيث النبي سار  
على هذا النهج ، وقام بالامر والنهي والدلالة على  
طريق السعادة . ويقال انه بنى الكعبة بالحجارة  
والطين . وهي اول بيت وضع للناس ، ولعل بناء  
هذا البيت كان المحرك الاول لفكرة البناء التي اخذ  
بها الانسان من مصور سحيقة ، كما ان ا شيث ( هو  
المعلم الاول في هذا الموضوع . والبناء الاول . ولد له  
نفر كثير ولكن الوصية كانت في ابنه ( انوش ) .

وتتابع هذه السلسلة التي هي اصل البشرية  
فيما بعد ما انوش وولد له نفر كثير واما الوصي فهو  
ابنه قينان الذي ولد في العام ( 325 ) من حياة آدم ،  
وولد لقينان نفر كثير منهم ( مهلائيل ) وهو الوصي  
وولد لمهلائيل نفر كثير منهم ( برد ) وهو الوصي وولد  
لبرد نفر كثير منهم ( اخنوخ ) وهو الوصي .

واخنوخ هذا هو ادريس النبي سمي ادريسا  
لدراسته الصحف التي نزلت على آدم وشيث ،  
وادريس هو اول من نظر في علم النجوم والحساب ،  
وهو اول من غاط الثياب وقبس المخيط .. فهو اذن من  
تلك الحركات التي نهت الدواعي المبيقة في الانسان  
على درب البناء والتطلع الى المستقبل وتحسين  
الوسائل التي بين يديه واكتشاف ما خبيء من اسرار  
في هذه الارض وما يحيط بها .

ولد لادريس خلق كثير وكانت الوصية لابنائه  
ا متوشلخ ، وكذلك متوشلخ اوصى لابنه ا لمك .  
ولمك هذا هو ابو نوح الرسول . فكانت السلسلة من  
آدم الى نوح كما يلي :

آدم — شيث — انوش — قينان — مهلائيل — برد  
— ادريس — متوشلخ — لمك — نوح .

ولقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلها كانت  
على ملة الحق . وانما وقع الكفر والفساد في القرن  
الذي بعث فيه نوح بالانذار والوعيد حيث كثر الفساد  
وشاع الكفر والاحاد .

ولد نوح في العام 126 من موت آدم اي في العام  
1126 ، من حياة البشرية وقد ارسل الى قومه ،  
ومكث فيهم يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر زمنا

طويلا ، لما آمن معه الا قليل فدعا دعوته المدمرة التي شملت كل مخلوق على الارض ، ما عدا اهل السفينة ( وقال نوح : رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا . انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا ناعرا كفارا - نوح 26 - 27 ) .

امر نوح ببناء الفلك وعندما باشر فيها سخر قومه منه لانهم لم يتصوروا ان بناء ما سيموم على وجه الماء ، وبهذا الفتح الجديد في عالم التجارة والمعوم بالمنجور على صفحة المياه يكون نوح احدى الحلقات في سلسلة العلوم واصولها التي بنت عليها البشرية ، وما زالت تبني حضاراتها المختلفة .

« واصنع الفلك باعيننا ووحينا ، ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مفترقون . واصنع الفلك وكلما مر عليه مالا من قومه سخروا منه ، قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم . حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه الا قليل .. وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال ساوي الى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المفترقين . وقيل يا ارض ابلعي ماك وما سماء اقلعي وغبض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين . (هود) »

يتكلم علم الجيولوجيا عن اكثر من مرة طفت فيها مياه البحر والامطار الغزيرة على اليابسة لغمرتها كلها، واهياتا فغمر اكثر اجزائها او بعضها ولكن مع اختلاف بين علماء الجيولوجيا حول تحديد تلك الازمنة الجيولوجية التي حدثت فيها طغيان المياه على الارض وترب تلك الحوادث من التاريخ البشري او بعدها منه .. وانكر على سبيل المثال حادثتين مما يذكره علم الجيولوجيا :

1 - حدث طغيان بحري عام ( طغيان المصفر السينوماتي ) دلت عليه الاراضي الحوارية في مختلف الاصقاع . وذلك فيمنتصف الدور الحواري ( الكريتاسي ) وهو آخر ادوار الزمن الثالثي الجيولوجي والذي تليه حقبة الحياة الحديثة .

2 - في دور الميوسين ( الدور قبل الاخير من الزمن الثالث ) تقلص البحر المتوسط الكبير اتبقيس ا حتى اصبح اصغر رقعة من البحر المتوسط الحالي ، ثم طفت البحار على اليابسة ماتسمت رقعة البحر المتوسط واصبحت ابعاده شبيهة بابعاده الحالية واهلق من الشرق ، وذلك في البليوسين . وهو الدور الاخير من ادوار الزمن الثالث - الملعب بحقبة الحياة الحديثة ( دور بدء ظهور الانسان على الارض .

هذه المقالة الجيولوجية تتراوح بين تطبي الظن واليقين حتى بين علماء الجيولوجيا انفسهم . واما الذي اومن به انا فهو ان الطوفان قد حصل ، وهو طغيان الماء على اليابسة بشكل عام ذلك الطغيان الذي دمر الحياة واغرق الاحياء والنبات ، ولا زالت الحفريات تكشف عن هيكل احياء تلك الحقبة من ناس وحيوانات وعن اشجارها ونباتاتها المظورة.. وما البترول وتركيبه العضوي سوى دليل واضح على تلك الاجساد التي اغرقت بالماء ، وطمرت عوامل الانجراف . حيث ثبت بالتحليل وجود مواد في البترول تنتج مادة من تحليل يخضور النباتات او خضاب الدم .

كما ان الزمن الذي حصل فيه الطوفان قريب من زمننا هذا وعلى بعد ( 4.500 - 5.500 ) وهذا الرقم يكاد لا يذكر امام الارقام الخيالية التي يضمها علماء الجيولوجيا رغم اختلافها ، والذي دللني الى اغفال ما قالوا وتثبت هذا الرقم ( 4.500 - 5.500 ) هو :

1 - عدم اتفاقهم على رقم معين ، بالاضافة الى الفروق الشاسعة بين ارقامهم انفسهم .

2 - ما نرضه على الخط الذي اتبعه في بعثي هذا من حيث البناء على الاخبار التاريخية هي التي دلمنتني لوضع هذا الرقم .

لنرجع الى بحثنا الاصيل ناقول :

يعتبر نوح ابا البشرية بعد آدم حيث ان الذين ركبوا معه هم ابناؤه واسرهم المؤمنون ( قال عز وجل: وجعلنا ذريته هم الباقين .. ثم افرقتنا الاخرين . ( الصافات ) .

وقد أجمع المؤرخون ان لنوح أربعة اولاد هم :  
كنعان — سام — حام — يافث . لما كنعان مهسو  
الفريق ، واما الثلاثة الآخرون فالى نسلهم ترجع  
البشرية .

وفي الحديث : الذي رواه اكثر من واحد من  
طريق ( قتادة والحسن وسرة بن جندب وعمران بن  
حصين ) رضوان الله عليهم ان رسول الله صلى الله  
عليه وسلم قال : « ولد نوح ثلاثة : سام وحام ويافث ،  
نسام ابو العرب ، وحام ابو الزنج ، ويافث ابو الروم »  
نسام اذن ابو العرب ، واليه ترجع اللغات  
النسائية كلها ، وكان من اولاده ارم — وارهشند —  
واشوذ — ولاوذ وعويلم .

وولد لارم بن سام : عوص — وغائر — وهويل ،  
وولد لعوص : غائر بن عوص ، وعاد بن عوص ،  
وعبيل بن عوص . وولد لغائر بن ارم : ثمود بن غائر  
وجديس ابن غائر . وكانوا قوما حربا يتكلمون بهذا  
اللسان المصري ، فكانت العرب تقول لهذه الاسم :  
العرب العاربة لانه لسانهم الذي جبلوا عليه ، ويقولون  
لبني اساميل ( ابن ابراهيم بن تارح بن ناحور بن  
ساروخ ابن ارغوا بن فالخ بن غابر بن شالخ بن قينان  
بن ارفخشذ بن سام ) العرب المتعربة لانهم انما  
تكلموا بلسان هذه الامم حين سكنوا بين اظهرهم . فعاد  
وثمود والمعاليق ( الكتمانين ) واميم وجلسم وجديس  
وطسم هم العرب ( كما يقول التاريخ ) .

ومن ولد ارفخشذ بن سام الانبياء والرسول  
وخيار الناس والعرب كلها والفرانجة بمصر ومن ولد  
يافث ملوك الامم كلها من الترك والخزر وغيرهم ،  
والفرس الذين آخر من ملك منهم يزديجرد بن شهريار  
ابن ابرويز ونسبه ينتهي الى جيومرت بن يافث بن  
نوح .

واما تحطان بن حابر الذي حكم اليمن والذي  
هو اول من سلم عليه — ( ابيت اللعن ) فكانت  
نسبته الى نوح كالاتي :

« نوح — سام — ارفخشذ — قينان — شالخ —  
حابر — تحطان — يعرب .. وهكذا » ولقد ولد لحابر  
( وهو ابو تحطان ) تحطان ومالخ ، ومالخ معناه قاسم  
وسمي بهذا الاسم لان الارض قسمت واللسن تبللت  
في ايامه .

وعلى ذكر بلبله الالسن ، ذكر المؤرخون ان اللغة  
كانت واحدة بالنسبة لثرية نوح وقد تفرقت واختلقت  
فيما بعد ، وقد وردت عدة اسباب لهذا الاختلاف منها :  
ما يقوله ابن جرير الطبري في تاريخه ( ص 210 ج 1 )

« وكان مولد فالخ بعد الطولمان بمئة واربعين سنة  
لما كثر الناس بعد ذلك مع قرب عهدهم بالطولمان  
هبوا ببناء مدينة تجسمهم فلا يفرقون او صرح حال  
يحرزهم من الطولمان ان كان مرة اخرى فلا يفرقون ،  
فأراد الله عز وجل ان يوهن امرهم ويخلف ظنهم ويعلمهم  
ان الحول والقوة له ، فبدد تسلمهم وشقت جسمهم وورق  
السننهم ، وكان عمر حابر ( 474 سنة ) »

« وقال الحارث بن محمد : كان يقال لعاد في  
دهرم عاد ارم لما هلكت عاد قيل لثمود ارم ، فلما  
هلكت ثمود قيل لسائر بني ارم : ارمان ، فهم النبط ،  
فكل هؤلاء كان على الاسلام ( أي التسليم لله الواحد )  
وهم ببابل حتى ملكهم نمرود بن كوش بن كنعان بن  
حام بن نوح فدعاهم الى عبادة الاوثان ، ففعلوا  
فامسوا وكلامهم السريانية ثم اصبحوا وقد بلبل الله  
السننهم فجعل لا يعرف بعضهم كلام بعض ، فعاد  
لبني سام ثمانية عشر لسانا ولبني حام ثمانية عشر  
لسانا ولبني يافث ستة وثلاثون لسانا ، ففهم الله  
العربية عادا وعبيل وثمود وجديس وعيليق وطسم  
واميم وبني يعطن بن حابر .

وبهذا الموجز التاريخي نكتفي لترجع السى  
موضوعنا الاساسي ما هي اللغة الام التي تكلم بها  
الانسان الاول ثم ورثها بنيه من بعده .

المعروف ان الاسرة هي المدرسة الاولى للانسان  
فمنها يتلقى اول ما يتلقى اللغة ثم العادات والتقاليد ثم  
الاخلاق والمثل .. الخ .

ومن السرد التاريخي الموجز الآنف الذكر نجد  
بالضرورة ان السلسلة البشرية ما بين آدم ونوح  
وبالتالي ابنائه ( سام وحام ويافث ) كانت تتكلم لغة  
واحدة .

اولا — لان الصلة وثيقة بين الاب ( الموصى )  
والابن ( الموصى له ) .

ثانيا — لقلة العدد وغلبة الاجتماع في منطقة واحدة  
— الا ما ندر .

ثالثا - لطول حياة آدم وقربها من مولد نوح عليهما السلام ( 126 سنة ) .

فإذا ثبت ذلك نرجع لنبحث عن تلك اللغة الواحدة التي سادت تلك العتبة من التاريخ ودوت الناظها على وجه البسيطة .

وبناء على ما تقدم : فإن آدم عليه السلام قد تكلم - أول ما تكلم - في الجنة قبل أن يهبط إلى الأرض ، وأجرى مناظرته في علم الأسماء مع أهل الجنة من ملائكة وغيرهم ، فما هي لغة أهل الجنة يا ترى ؟ ..

روى الطبراني والحاكم والبيهقي وآخرون عن ابن عباس وعن أبي هريرة بطرق مختلفة بعضها بعضها بعضا ، بهذا المعنى وبهذا اللفظ أحيانا وقريبا منه ما يلي :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أحبوا العرب لثلاث لاني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة لي الجنة عربي » ( 12 ) .

وعلى هذا يكون آدم قد نطق بالعربية ومن ثم تعامل بها عند ما هبط إلى الأرض ولقنها لابنيه من بعده ( والله أعلم ) .

واستمرت هذه اللغة يتناقلها الأبناء عن الآباء حتى عهد نوح .

وإذا كان سلم بن نوح هو أب العرب ، فمن باب أولى أن يكون نوح أب العرب أيضا . وقد علم العربية لابنيه الآخرين حام ويانث ، وما تخصص سام بأبوة العرب إلا بمعنى لغات أكثر فروعها على اللسان العربي بمعنى غالبية الفروع في حام ويانث التي تأثرت بالبيئات الجديدة وابتعدت عن موطن اللغة الأم فتطورت كلمات وتكونت لهجات ثم تعمقت لغات على درب البشرية الطويل ويوضح هذا المنح أكثر فأكثر حديث الرسول الكريم الذي يقول فيه : « ليسست العربية لأهكم من أم ولا أب ، ولكن العربية هي هذا اللسان فمن نطق بالعربية فهو عربي » .

ونخلص إلى النظرية التالية :

العربية أم اللغات وأصلها الأصيل ، وكل اللغات الآرية والسامية والعمامية كان أصلها لهجات عربية تولدت عنها وتطورت فيما بعد بحسب البيئات والهاجيات ثم تعمقت كلغات مستقلة على مر العصور .

يقول الإمام القلقشندي في موسومته ( صبح الاعشى ) ( 13 ) عن اللغة العربية :

« أما لغتها فقد أخرج ابن أبي شيبة بسنده إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : ( تعلموا اللحن والفرائض من الله من دينكم ) . قال يزيد بن هارون ( اللحن هو اللغة ) . ولا خفاء أنها امتن اللغات . وأوضحها بيتا . وأذلتها لسانا وأدها روايا ، وأعذبها مذاقا ، ومن ثم اختارها الله تعالى لأشرف رسله وخاتم أنبيائه وخيرته من خلقه وصلوته من بريته . وجعلها لغة أهل سماه ، وسكان جنته ، وأنزل بها كتاب المبين الذي لا ياتيئه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

« قال في صناعة الكتاب : وقد اتفقت اللغات كلها لغة العرب ، فاقبلت الامم اليها يتعلمونها »

وأما ظاهرة اختلاف الألسن وتمدد اللغات التي مر ذكرها أننا ، للحكمة يريدنا الله ، والاختلاف بعد ذاته آية من آيات الله ، قال تعالى ذكره :

« ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السننكم واللغات . ان في ذلك آيات للعالمين » ( الروم 22 ) .

والاختلاف لا يكون إلا من بعد الاتفاق ، والاتفاق كان على اللغة الأم ، ومن ثم تفرعت وتم اختلاف الألسن .

« وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلوا ولولا كلمة سبقت من ربك لغضبي بينهم فيما فيه يختلفون » ( يونس 19 ) .

ولعل هذا الاختلاف إنما كان لتمييق الناس من أجل الإصلاح والانفصال والآخر ولعدم اجتماع الناس على الفساد ..

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين » ، البقرة 251 .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ... » ( الحج ) .

## الطائفة :

من الماء ، وهذا يعني الساحل لان الساحل  
ايضا هو ريف البحر وشاطئه .

من كلمة ريف جاءت كلمة (Ripa) اللاتينية  
وهي بمعنى ساحل - ومنها Riviera  
الاطالية : ساحل - ومنها Rivière الفرنسية:  
وهي بمعنى ساحل تدفيا وهدينا بمعنى نهر -  
ومنها Rive الفرنسية : ساحل - ومنها  
River الانكليزية : بمعنى نهر .

2 - كلمة ( صج ) صوت اصطلق العديد منها  
( صنج ) آلة الطرب النحاسية . ومنها ( سنجة )  
كلية الميزان - ومنها ( سنجة ) حجر الميزان .  
وبنفس المعنى جاءت كلمة ( سنكة ) الفارسية  
وصيغت منها كلمة ( سنك ) اي الحجر ، ومن  
هذه كائن ( Singan ) السكونية - و ( Sing ) الانكليزية  
وهي بمعنى يفتني .

3 - كلمة ( بلاط ) تعنى في العربية الارض المستوية  
المساء . وهي ام الكلمات الآتية :

Platta اللاتينية بمعنى صحبة .  
Piazza الايطالية بمعنى ساحة .  
Plate الفرنسية بمعنى طبق .  
Piat الانكليزية بمعنى سطح .

وكلها تشترك بمعنى الاستواء والسطحية .

هذا نموذج مصغر مما قيل في العلم ارجاع  
اللغات الى اللغة الام ( الترسيس ) . واما الوصول  
الى درجة اليقين المثلث في هذه الناحية بالسذات  
فيحتاج الى التحقيق والتدقيق المستمرين .

واخيرا يجيب هذا البحث على ما ورد من تساؤلات  
في مطلعها ، وباليعين الثابت ان البشرية ترجع الى آدم  
( عليه السلام ) وان آدم لم يكن له مقدمات في عالمي  
الجن والحيوان ، ولكنه كان على احسن صورة يتمتع  
بنفس الحواس والاجهزة التي يتمتع بها انسان اليوم ،  
ومنها النطق والبيان ، وقد اودع الله فيه من الاسرار  
ما يكفيه ليكون خليفته في ارضه ، كما ان الله سبحانه  
وتعالى قد علمه اساء كل شيء مما سيتبع تحسنت  
ناظره ويديه ، فكان هذا العلم ذخيرة من الالفاظ  
والكلمات المدركة الجاهزة اخذ يطلقها على امرادها عند  
اللزوم ، وقد علمها ابناؤه وذريته قبل ان ينتقل السى  
العالم الاخر ... وبغير هذا لا يقبل العقل ابدا ..

واما تعدد اللغات فهو ظاهرة طبيعية ومعقولة  
ترجع الى تفرع اللهجات عن اللغة الواحدة ، وبالتالي  
تحسنتها على مر العصور ، وقد رافق ذلك استنباط  
كلمات جديدة وتركيب الفاظ حديثة نتيجة لسبببات  
مستعينة .

واما من اللغة الام فكان الجواب منها ثابما على  
اساس الظن اليقيني او بتصبير آخر على توى الظن؛  
وذلك لتولي ان العربية هي ام اللغات واصلها الاصيل.

ولقد بحث بعض علماء اللغات العبية في موضوع  
العربية وارجعوا كلمات كثيرة من اللغات الاخرى اليها  
من ذلك ما قاله (14) الاستاذ عبد الحق نماضل ( نزول  
المغرب العربي ) :

1 - كلمة ( ريف ) في العربية معناها الارض القريبة

- 1) عندما نقل احد الباحثين المحققين هذا النص الى كتاب له ، علق هنا بقوله : « هذا مجرد رأي لهكسلي  
بوصله - دارونيا - وهو طبعا يمز عليه ان يتراجع من فروض دارون كلية امام ضغط الحقائق  
الجديدة ، ولكنه يتراجع بالفعل ، وهو يتظاهر بانه ثابت على اصول النظرية .. والانسان يحتوي  
الكيان الحيواني من الناحية العضوية ولكنه ليس حيوانا بالمعنى الذي تقوله الدارونية » .
- 2) هنا يظهر تراجع هكسلي بين ضغط الحقائق وبين مقتضيات الاحاد والمادية .
- 3) نحن ننقل نموص هكسلي كما هي - بغض النظر عما نخالفه فيه في نشأة الانسان .
- 4) ص 123 - 124 من كتاب الخطر اليهودي - لمؤلفه محمد خليفة التونسي
- 5) ص 49 - 52 من كتاب التلمود - جمع عبد المنعم شميس .
- 6) طباعة دار المعارف بمصر ( ذخائر العرب - 30 )

- (7) الطبعة الاولى بالمطبعة الخيرية لمالكها وندبرها السيد عمر حسين الخشاب بمصر .
- (8) الكلام الموجود داخل الاتواس في الاسطر الاخيرة من هذا النص ليس من اصل النص بل هو تفسيري .
- (9) روى الحاكم من جابر قال : ترا علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها . ثم قال مالي اراكم سكوتا . الجن كانوا احسن منكم ردا . لما قرأت عليهم هذه الآية : (غياي الاء ريكا تكذبان قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد . . . ) تفسير سورة الرحمن في الجلالين .
- (10) كتاب شفاء المليل . لابن قيم الجوزية .
- (11) اخذت هذا الموجز بتصريف من تاريخ الطبري الجزء الاول من الصفحات الاولى حتى الصفحة 250 وعلى الاخص الصفحات 145 - 155 - 167 - 178 - 204 - 205 - 207 - 210 ، فليرجع اليها في حالة الاستزادة .
- (12) كشف الخفاء - ج 1 ص 54 - للمحدث الشيخ اسماعيل بن محمد المجلوني الجراهي المتوفى سنة 1162 هـ .
- (13) الجزء الاول ص 148 .
- (14) بنصرف من العدد الخامس من مجلة اللسان العربي التي يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب (الرباط) . وقد جاء البحث تحت عنوان ( علم الترسيب ) .

